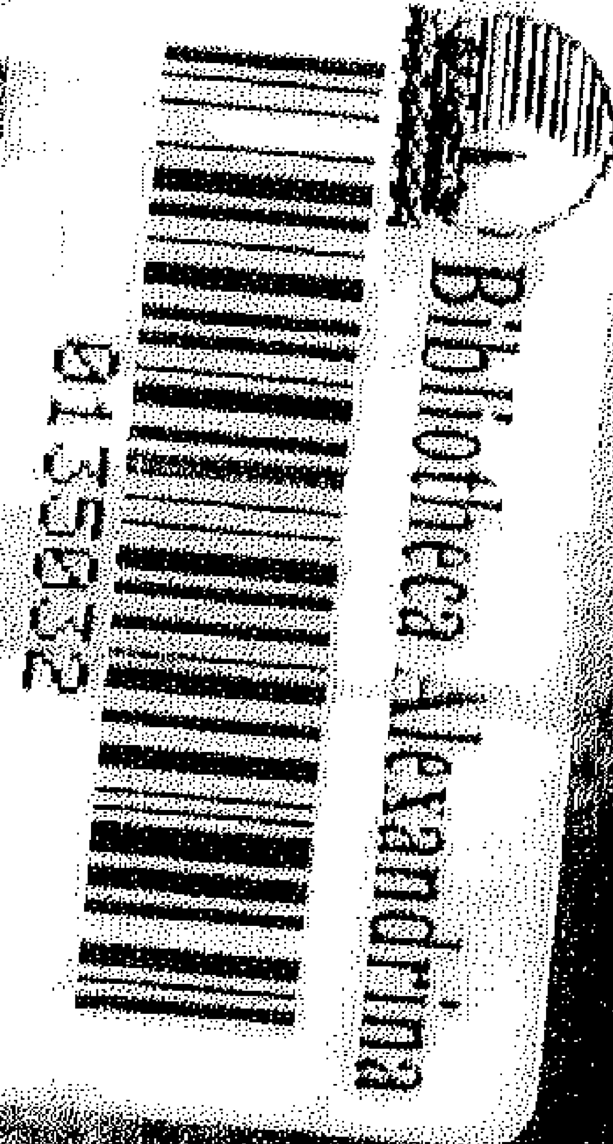
الشخصية الإنسانية

في ضوء القرآن الكريم

د. أحمد عبد الحميد غراب



الشخصية الإنسانية
في ضوء القرآن الكريم

بقلم

د. أحمد عبد الحميد غراب



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

الاخراج الفنى : زهور السلام شاكر

مقدمة

حقائق الاسلام لا تفاوت فيها ، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان! لكن التعريف بالاسلام قد يحتاج الى شيء من التأنى والتصرف حسب ما يواجه الكاتب من شبهات تثار ، أو عقبات تقام ، أو أسئلة تعرض ، وعندئذ يبذل المؤلف جهده فى رد الشبهة وازاحة العوائق ، وشرح الغوامض وابراز ما قد يخفى من محاسن ٠٠٠ وعصرنا هذا بحاجة الى علماء مهرة يمهدون طريق الدعوة ، ويتلطفون فى ايصالها الى الأفئدة ويقدمون الوحى الأعلى مغنيا عن كل ما انشغل الناس به من أهواء ومذاهب ٠٠

والأستاذ الدكتور أحمد غراب رجل واسع الاطلاع على العلوم الدينية ، والثقافات الغربية أو على الاسلام والمذاهب المقابلة له ، وقد أعانتههذه السعة على وضع دراسة « لتصنيف الشخصية الانسانية فى ضوء القرآن الكريم » حسب تعبيره ، أو رسم الرحلة من الظلمات الى النور! واخراج الناس من الظلمات الى النور انعام الهى يحظى به من والاهم الله منخلقه، وأيدهم بروح من عنده «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم منالظلمات الى النور ٠٠٠ » بيد أن هذه النعمة لها مفاتحها وخزائنها ، لها رجال يهدون بالحق ويدعون على بصيرة ، والكتاب الذى بين أيدينا يحتوى على ثروة كبيرة من التوجيهات الراشدة والقضايا الصائبة ، ألفه رجل آتاه الله خبرة بأحوال العصر ، وطبائع الجماعة الاسلامية هناوهناك ، وله المام دقيق بتاريخنا الثقافى ، واحساس بالزاد الفكرى والروحى الذى يناسب أمتنا فى هذه الأيام مع سهولة فى الأسلوب واشراق فى الأداء نسأل الله النفع به ٠

محمد الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ مقدمة

الشخصية الانسانية فى غير الاسلام

يقوم تصنيف الشخصية الانسانية فى غير الاسلام على مقاييس بشرية جاهلية مختلفة ، ترتكز فى معظمها على الاهواء والظنون ٠

فبعضها يقيم شخصية الانسان من حيث الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها أو من حيث جنسه أو لون جلده ، أو مقدار دخله ، أو من حيث قوميته أو وطنه، وبعضها يقيم شخصية الانسان من حيث بنية جسمه أو تركيب مزاجه ، وبعضها الآخر يقيم الانسان من حيث موقفه من الناس ٠

فالهنود ـ طبقا لديانتهم الهندوسية ـ يقسمون الناس حسب طبقاتهم ، ويقيمون شخصية كل انسان حسب الطبقة التى ينتمى اليها : فأسمى شخصية هى شخصية الانسان الذى ينتمى لطبقة الكهنة (البراهمة)، وتليها شخصية من ينتمى لطبقة المحاربين (الكشتريا) ، ثم من ينتمى لطبقة التجار والصناع والفلاحين (الويشيا) ، وأخيرا من ينتمى لطبقة الخدم والعبيد (الشودرا) ٠ وترجع أصول الطبقتين الأوليين الى الجنس الآرى ، والأخريين الى الجنس الطورانى ٠

وهناك طائفة أخرى أسوأ من طبقة الخدم والعبيد وهى طائفة المنبوذين (The Untouchable) وتعتبر هذه الطائفة عندهم أحط من أن تدخل فى التقسيم الاجتماعى ، ويعامل أفرادها كأنهم حيوانات أو أقل مستوى ، وهم محرومون من حقوق الانسان ، وأحقر الحرف مقصورة عليهم، وأبواب العلم موصدة فى وجوههم ، والانسان الذى ينتمى لهذه الطائفة (أو لأى طبقة أخرى) لا يسمح له بالترقى الى طبقة أعلى ٠ فالمنبوذ يظل منبوذا طول حياته ، ولا ذنب له الا انتماؤه لتلك الطبقة ، أما من ينتمى

لطبقة الكهنة فيظل ممتازا طول حياته ولا فضل له سوى انتمائه لتلك الطبقة . ويربطون هذا التقسيم الطبقي بنص ديني هندوكي يقول « ان الاله برهما خلق البرهمي من فمه ، والكشتريا من ذراعه ، والويشيا من فخذه ، والشودرا من رجله ، فكان لكل من الطبقات منزلته على هذا النحو . أي أن هذا التقسيم أبدي لا يتغير لأنه من صنع الاله . ويقرر أبو الريحان البيروني أن هذه الطبقية الصارمة حالت بين كثير منهم وبين اعتناق الاسلام ، وذلك لمساواة الاسلام بين الناس الا بالتقوى (١) .

وهذه النظرة الى الانسان من خلال طبقته لم تكن مقصورة على المجتمع الهندي بل كانت سائدة في المجتمع الفارسي القديم(٢) ، وبين اليونان والرومان ، بل مازالت سائدة في بعض المجتمعات الغربية الحديثة « المتحضرة » فبالرغم من أن بريطانيا مثلا لا تفتأ تزعم أنها موطن الديمقراطية لا يزال الاحساس الطبقي فيها قويا ولا سيما بين أفراد الطبقة الأرستقراطية التي ما زال انتماء الفرد اليها يعد سمة من سمات النبل ، وما زال يكسبه مزايا « وراثية » لم يكن ليحلم بالحصول عليها لو كان من الطبقة العاملة .

أما معاملة السود في أمريكا فهي أشهر من أن تذكر ، ويكفي أن نشير الى أنه في المجتمع الامريكي تقيم شخصية الانسان غالبا حسب لون جلده فاذا كان هذا اللون أبيض حكم لصاحبه بالتفوق والامتياز ، واذا كان أسود حكم عليه بالتخلف العقلي والخلقي وعوقب بأنواع من العقوبات الاجتماعية فيها كثير من الامتهان لانسانيته ، كأن يحرم هو وأولاده مثلا من وظائف ومطاعم ومدارس معينة مقصورة على البيض ، وما ذاك الا بسبب لونه ، وهو شيء ليس من صنعه بل من صنع الله .

وتنوع ألوان البشر كتنوع لغاتهم ظاهرة لا علاقة لها في الاسلام بتفوق الانسان أو تخلفه ، وانما تدل على قدرة الله وحكمته في الخلق ومن ثم تعد آية من آياته التي ينبغي على العلماء دراستها . قال تعالى :

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » (الروم ٣٠/٢٢)

---

(١) راجع البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٦ ـ ٧٧ . وأحمد شلبي : اديان الهند الكبرى ص ٥٣ .

(٢) راجع البيروني : السابق ص ٧٥ والمسعودي : التنبيه والاشراف ص ٩٠ وكريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ص ٨٥ وما بعدها .

والهدف فى الاسلام من دراسة اللغات والأجناس هو تحقيق التعارف والتعاون بين الشعوب ، لا اثارة العداوة والبغضاء بينها ؛ بدعوى العصبية العمياء • قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات ١٣/٤٩) •

ومعروف أن تعصب الحضارة المادية فى الغرب قد أدى الى نشأة « نظريات » تزعم تفوق الرجل الأبيض والجنس الآرى والانسان الأعلى • ومعروف كذلك أن الغرب قد التمس فى هذه النظريات تبريرا لاستعماره للشعوب الأخرى ، واستعباده الجماعى لأحرارها ، ونهبه المنظم لثرواتها •

واذا تركنا هذه التصنيفات التى تقوم على التعصب والهوى الى تصنيفات أخرى تلبس مسوح العلم فسنجد بها بعض ما يفيد ولكن سنجد أنها تقوم أساسا على الظن لاعلى اليقين •

ومن أهم هذه التصنيفات ثلاثة :

١ ــ **التصنيف الطبى** القديم لشخصية الانسان حسب مزاج البدن الى أربعة أنواع : دموى (حاد الطبع) ، وبلغمى (بارد الطبع) ، وصفراوى (غضوب) ، وسوداوى (متشائم) •

٢ ــ **التصنيف النفسى** : ففى علم النفس الحديث نجد التصنيف المعروف الذى وضعه عالم من أشهر علماء النفس وهو يونج (Jung) الذى صنف شخصية الانسان الى نوعين : انطوائى Introvert وانبساطى Extrovert

٣ ــ وهناك تصنيف ثالث أحدث عهدا يربط شخصية الانسان بنوع بنية جسمه ، وعلى اساس هذا الارتباط يقسم الشخصية الانسانية الى ثلاثة أنواع (١) :

١ ــ **الشخصية الاجتماعية** : وهى شخصية الانسان الذى يحب الاختلاط بالناس ؛ ولا يكاد يطيق فراقهم ، ويكره العزلة والتأمل ، ويحب الطعام (ولا سيما مع الناس) ، والمال والراحة والترف • وعندما تنتابه

(١) راجع : A. Huxley : The Perennial Philosophy, p. 156-9.

أزمة ، أو يقع فى شدة ، يهرع الى الناس طالبا عونهم ، أو على الأقل صحبتهم ! وجسمه يتميز بالنعومة والرخاوة والميل الى السمنة !

٢ ـ **الشخصية المحبة للسيطرة** : وهى شخصية الانسان الذى يهوى ممارسة النشاط البدنى . ويحب السلطة والقوة ومظاهرهما ، كما يحب التنافس والتغلب على الآخرين ، ولا يبالى بما يعانى فى سبيل ذلك من آلام ، كما لا يبالى بمشاعر الناس ٠ واذا وقع فى شدة حاول التغلب عليها عن طريق القيام بأنشطة بدنية (كالرياضة) وبنية جسمه قوية تمكنه من تحمل المشاق ، وعظامه كبيرة ، وعضلاته مفتولة ! ٠

٣ ـ **الشخصية المحبة للتفكير** : وهى شخصية الانسان الذى لا يهتم كثيرا بالعالم الخارجى ، ولا يستريح الى لقاء الناس ، وهو حيى وعصبى اذا اضطر الى الاجتماع بهم ، وهو يحب العزلة والانطواء ، والتفكير والتأمل ٠ ولا يكف عن نقد الناس والمجتمع من حوله ، ولا يبالى بجمع المال ، ويحتقر حياة الترف ومظاهر القوة البدنية والسلطة ، ويتميز بحساسية مرهفة ٠ أما جسمه فهزيل ، دقيق العظام ، ضعيف العضلات!

ومن الواضح أن هذا التصنيف فيه بعض الحق وبعض الفائدة ، ولا سيما فى امكانية استخدام هذه الخصائص النفسية فى التربية ٠

ولكن كل هذه التصنيفات تقوم على الظنون :

فالتصنيف الطبى يجعل مزاج الجسم هو الحاسم فى تحديد شخصية الانسان ، اذ يجعل كل قواه النفسية والعقلية خاضعة وتابعة لعناصر جسمه ٠ ولا شك أن للجسم أثرا فى تفكير الانسان وشعوره وسلوكه ، ولكنه ليس العامل الوحيد ؛ فضلا عن أن يكون العامل الحاسم ٠ فمن المعروف أن ما يشغل عقل الانسان ووجدانه من تفكير وشعور يؤثر فى جسمه ، فالقلق مثلا قد يسبب أمراضا كقرحة المعدة ٠ والانفعال الشديد يؤثر على القلب ، وسلوك الاشرار كاللصوص والقتلة يؤدى عاجلا أو آجلا الى سوء صحتهم ٠ ومن المعروف كذلك أن الارادة الانسانية الواعية لها أكبر الأثر ليس على جسم الانسان فحسب بل فى توجيه حياته كلها ٠ وهذا التصنيف فى الحقيقة يكاد يلغى كل أثر للارادة الانسانية ، اذ يخضع الانسان لنوع من « الجبرية » الجسدية تجعله محكوما فى كل تصرفاته وأعماله ببنية جسمه التى لا دخل له فى تركيبها أو خلقها ٠

والتصنيف النفسي : لشخصيات الناس الى نوعين : انطوائى وانبساطى يقوم على نظرة خاطئة ، تنقضها ملاحظاتنا اليومية لأنواع ونماذج شتى من الشخصيات . كما أن هذا التصنيف يجعل العلاقات الاجتماعية بالناس هى المقياس النهائى لتقييم شخصية الانسان ، فهو اما انطوائى أو انبساطى بالنسبة لهم . وسنرى أن هذا المقياس ليس صحيحا .

أما التصنيف الأخير فينتقد من عدة وجوه :

١ ـ أنه كالتصنيف الطبى يقوم على الربط بين نوع معين من الجسم ونوع معين من الشخصية ، وأن العامل الحاسم فى هذه العلاقة هو الجسم ، وقد بينا خطأ هذه الفكرة وما تؤدى اليه من جبرية .

٢ ـ أن الانسان الواحد قد يجمع فى شخصيته بين كل هذه الخصائص فيكون قوى الجسم ، اجتماعيا ، ذا سلطة ؛ ومع ذلك يكون ذا حساسية مرهفة وتفكير عميق . وقد اصطفى الله طالوت ملكا على بنى اسرائيل ؛ وكان من أسباب اصطفائه أن الله :

« زاده بسطة فى العلم والجسم » (البقرة ٢/٢٤٧)

وكثير من العلماء والمفكرين يتمتعون بأجسام قوية وصحة جيدة . وكان كثير من علمائنا المسلمين مجاهدين قاتلوا بسيوفهم فى سبيل الله ؛ وكان لهم من الكفاءة البدنية و« اللياقة » العسكرية ما جعلهم جنودا ودعاة فى آن واحد . وكان أسوتهم الحسنة فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أوتى أشرف العلم وهو علم النبوة ، وأشرف الحكم وهو خير أمة أخرجت للناس ، كما أوتى قوة فى الجسم جعلته لا يصارع أحدا الا صرعه .

٣ ـ أن التصنيفات النفسية الحديثة ـ ومنها التصنيف الأخير ـ تتجه غالبا الى أن تجعل الناس فى هذه الدنيا هم القياس النهائى لتقييم الشخصية . أى أن علاقة الانسان بالناس ونوع هذه العلاقة ، وما اذا كانت ترضيهم أو تسخطهم ، هى التى تحدد نوع شخصية الانسان ، وما اذا كان اجتماعيا أو انطوائيا أو محبا للمغامرة أو للتأمل . وسنرى فى هذه الدراسة أن هذا خطأ وضلال بعيد ، لأن الناس فى تقييمهم لانسان ما ، أو حكمهم له أو عليه ، يكونون غالبا مدفوعين بأهوائهم وما يظنون أن ذلك الانسان يجلبه لهم من نفع ، أو يدفع عنهم من ضرر ، فاذا كان فى ظنهم ينفع ويضر نافقوه ، وان كان بعكس ذلك أهملوه أو لم يقدروه حق قدره .

ومن ناحية أخرى فان جعل السلطة النهائية للحكم للفرد أو عليه في يد المجتمع يؤدى الى اخضاع الانسان لاتجاه الأغلبية ، أو على الأقل الى الضغط الشديد عليه ليخضع لاتجاه الأغلبية ، مهما كان هذا الاتجاه فاسدا (كما هو الحال فى الديمقراطية الغربية الحديثة ووسائل الاعلام المعاصرة) .

والاسلام يوجب على المسلم أن يؤيد الاتجاه الحسن ، ويقاوم الاتجاه الخبيث **مهما كثر أنصاره** .

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » (المائدة ٥/١٠٠)

ولذلك ينهى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلم أن يكــون امعة فيقول : « لا يكن أحدكم امعة يقول : أنا مع الناس ان أحسنوا أحسنت وان اساءوا اسأت ؛ ولكن وطنوا انفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وان أساءوا أن تجتنبوا اساءتهم » (الترمذى) .

مقياس القرآن

القرآن لا يقيم شخصية الانسان من خلال طبقته أو جنسه أو قوميته أو بنية **جسمه أو لون جلده أو مواقفه من الناس . فهذه** كلها أحكام تصدر عن اهواء البشر ، وظنونهم ، وتمثل ضلالهم بسبب بعدهم عن الله :

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (النجم ٥٣/٢٣)

للقرآن مقاييس أخرى فى تقييم شخصية الانسان ترجع كلها الى مقياس واحد وهو : موقف الانسان من هدى الله

وهذه الدراسة هى محاولة لبيان التصنيف القرآنى للشخصية الانسانية على أساس هذا المقياس ..

وهى كذلك دراسة نفسية تربوية هادفة ، تقوم على هدى القرآن الكريم .

ومن أهم الأسباب التى دفعتنى الى هذه الدراسة ما يلى :

١ ــ أن معظم ما هو متاح للدارس المسلم اليوم (طالبا واستاذا)

فى موضوع الشخصية الانسانية هو كتابات الغربيين ولا سيما فى التربية وعلم النفس . وهذه الكتابات وان كان فيها عناصر يجب الاستفادة منها لأن الحكمة ضالة المؤمن ـ فهى أساسا تمثل وجهة النظر العلمانية الالحادية السائدة فى علوم الغرب بوجه عام ، وفى التربية وعلم النفس بوجه خاص . ومن الواجب على المسلمين ألا يكتفوا بنقد وجهة النظر هذه ، بل أن يقدموا البديل عنها ، وهى وجهة النظر الاسلامية .

٢ ـ أن الدراسات الاسلامية المعاصرة فى هذا الموضوع ، وهى التى يمكن أن توصف بأنها مستمدة من مصادر الاسلام (ولا سيما من القرآن والسنة) وممثلة لوجهة النظر الاسلامية، ومكتوبة بأقلام مسلمين ملتزمين ـ مازالت قليلة . وبعض هذا القليل يجنح إلى الخطابيات والمبالغات ، أو يكتب بروح اعتذارية انهزامية ، أو يكتب من وجهة نظر لا اسـلامية (علمانية غربية غالبا) ثم يلبس مسوحا اسلامية ويعطى مصطلحات اسلامية (كالقول مثلا بأن الضمير هو النفس اللوامة !) .

٣ ـ أكثر من أعطى موضوع تربية الشخصية المسلمة حقه من علمائنا المسلمين هم علماء الأخلاق والصوفية الملتزمون بالكتاب والسنة ، كالامام الغزالى فى كتابه : **احياء علوم الدين** .

ولكن بعضهم خلطوا الأفكار الصالحة المستمدة من القرآن والسنة بأفكار أخرى مستمدة من مصادر غير اسلامية : كالمصادر الهندية واليونانية والمسيحية .

٤ ـ **أن معظم المفكرين المسـلمين المعاصرين (الا قلة أشرت اليهم** واستفدت منهم فى هذه الدراسة) يعطون الموضوعات السياسية والحكومة والاقتصاد والتشريع اهتماما أكبر مما يعطون لموضوع الشخصية المسلمة . ولا شك أن تلك الموضوعات تستحق الاهتمام الشديد ، ولكن موضوع الشخصية المسلمة لا يقل عنها أهمية ان لم يزد . فمن الحقائق التى ادركها وأكدها قادة ومفكرو الحركة الاسـلامية المعاصرة ـ كالامام حسن البنـا والأستاذ المودودى رحمهما الله والأستاذ أبو الحسن الندوى أطال الله عمره ـ أنه لايمكن قيام حكومة اسلامية أو تشريع أو اقتصاد مالم توجد الشخصيات المسلمة التى تتولى هذه المهام ، بل لا يمكن قيام أى نوع من التنظيـم الاسلامى الا اذا كانت لبناته سليمة .

٥ ـ ان الاسلام يقدم للناس غالبا فى صورة مبادىء وتعاليم نظرية والحقيقة أن عظمة الاسلام تتجلى دائما فى شخصيات حية : تفهمه حق

الفهم ، وتؤمن به أعمق الايمان ؛ وتعيش كل مبادئه وتعاليمه ؛ ومن ثم ينعكس ايمانها فى « سلوك » اسلامى هو « أعمال » صالحة ٠

وهذا هو منهج القرآن الكريم ٠

فالقرآن مثلا لا يعطي تعريفات نظرية للايمان والتقوى ، وانما يصف المؤمنين والمتقين بأخلاقهم وأعمالهم ٠ وهذا المنهج أجدى علميا وعمليا من المنهج الفلسفى النظرى القائم على المفاهيم المجردة والنظريات التى تبدو جميلة على الورق ، بينما تتحطم على أرض الواقع الانسانى ٠

والمثل الكامل للمبادىء والتعاليم الاسلامية ، أى النموذج الحى لهدى الله ، هو شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ثم شخصيات المهتدين بهديه من الصحابة والتابعين وورثة الأنبياء من العلماء فى كل العصور ٠ ولهذا ينبغى أن تستمد خصائص الشخصية المسلمة من القرآن والسنة وسيرة ورثة الأنبياء ، كما ينبغى أن نعرض هذه الشخصيات على أبنائنا وبناتنا على أنها الأمثلة الحية على كمال الاسلام وجماله ٠

٦ ـ ان الاتجاه الذى ظهر حديثا بين المسلمين وهو الغلو فى التكفير (١) ، يرجع فى بعض جوانبه الى أن الشخصية المسلمة بكل صفاتها وخصائصها لم توضح توضيحا كافيا بالمقارنة الى أنواع الشخصيات الأخرى التى وردت فى القرآن ، وهى أنواع عديدة كما سنرى فى هذه الدراسة ٠ ولذلك يكتفى كثير من المسلمين ـ لا سيما الشباب ـ بالحكم بأن الانسان اما مؤمن أو كافر ولا ثالث لهما ٠ وهذا التقسيم شديد العموم يحتاج الى تفصيلات مستمدة من القرآن توضح أنواع الشخصيات التى تندرج تحت هذا التقسيم والصفات التى تميز كل نوع ٠ وسنجد كثيرا من هذه التفصيلات اذا بحثنا فى القرآن ليس أولا عن مفهوم الايمان والكفر، بل أولا عن مفهوم الهدى والضلال ٠

فالحقيقة أن الايمان في القرآن هو الايمان والعمل بالهدى عن علم به والكفر هو رفض الهدى وعدم اتباعه بعد العلم به ٠

والهدى درجات ، والمهتدون أنواع : فمنهم مثلا أصحاب اليمين ومنهم المقربون ٠

وكذلك الضلال درجات والضالون أنواع ، ومنهم الضالون عن علم

---

(١) للدكتور يوسف القرضاوى رسالة فى هذا الموضوع عنوانها ظاهرة الغلو فى التفكير ٠٠ وكتاب الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف ٠

بالهدى وهم الكافرون وتحتهم أنواع ، ومنهم الضالون عن جهل بالهدى كله أو بعضه ، وهؤلاء أيضا انواع . ولكل نوع صفات تميزه عن غيره .

وللهدى والضلال فى القرآن كذلك خصائص ومسببات ينبغى أن تدرس وتستكشف ويستفاد من دراستها واستكشافها فى محاولة هداية الجيل الضال وبناء الجيل المهتدى ، اى فى عملية اخراج الناس من الظلمات الى النور .

وهذه الدراسة ما هى الا خطوة على هذا الطريق .

والمنهج الذى اتبعته هو منهج القرآن الكريم .

منهج التبين عن طريق الوصف والخصائص العامة للشخصيات ، وضرب الأمثلة وايراد النماذج لها ، واكتشاف الأسباب والمسببات للهدى والضلال . ثم محاولة الاستفادة من هذا المنهج فى محاولة اخراج الناس بكتاب الله من الظلمات الى النور .

فذلك أجدى عليهم وعلينا من اصدار فتاوى سريعة وأحكام عامة بالايمان والكفر .

وادعو اخوانى وأساتذتى من العلماء العاملين أن يشاركوا فى هذا الجهد المتواضع ، وأن يصححوا خطأه ، ويتمموا نقصه . فكل مسلم يؤخذ من كلامه ويترك الا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، والكمال لله وحده .

وأدعو الله تبارك وتعالى أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم ، وأن ينفع بها جميع المسلمين .

الفقير الى ربه
احمد عبد الحميد غراب

رمضان ١٤٠٤ هـ
يونيه ١٩٨٤ م

٢ ـ الهدى

خصائص الهدى (١)

(١) الهدى الحق هو هدى الله الذى جاء فى القرآن (وفسرته السنة) ٠

أى ان الهدى الحق للبشرية هو فى الاسلام وحده ، وليس فى أى دين أو نظام آخر :

« ان الدين عند الله الاسلام » (آل عمران ٣/١٩)

« ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله » (٣/٧٣)

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٣/٨٥) ٠

(٢) هدى الإسلام هو من الله وليس من البشر ؛ أى أنه ربانى المصدر

وهذا يضمن عدالة تعاليمه وشمولها للناس جميعا ٠ أما تعاليم البشر فتصدر عن أهوائهم فتؤدى الى الظلم والفساد ٠ ولذلك يأمر الله تبارك وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أمرا مؤكدا مكررا أن يحكم بين الناس بكتاب الله :

« فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » (المائدة ٥/٤٨) ٠

وكذلك يأمر نبيه داود عليه السلام :

« فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» (ص ٣٨/٢٦)

---

(١) عرضنا هذه الخصائص بايجاز ، ومن أراد التوسع فليراجع : المودودى : مبادىء الاسلام ، وسيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ، ويوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاسلام ٠

(٣) ولأن كتاب الاسلام المشتمل على الهدى هو وحى من الله فهو حق لا ريب فيه ، ولا تحريف ولا تناقض ولا باطل . كما أنه منزه عن ظنون البشر وأهوائهم :

« ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين »(البقرة ٢/٢) .

« وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (فصلت ٤٠ ٤١ ــ ٤٢) .

« وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » (النجم ٥٣/٣ــ٤) .

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (٥٣/٢٣)

(٤) الاسلام رشد

أى أن اتباع تعاليمه يقود الانسانية الى حياة راشدة حكيمة ، حياة طيبة تقوم على الفضيلة ، وتؤدى الى الخير والسعادة لبنى الانسان جميعا . أما التعاليم الأخرى فتحقق خيرا جزئيا ، أو لا تحقق خيرا على الاطلاق ، أو تحقق الشر والشقاء :

« ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (الاسراء ١٧/٩) .

« انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به » (الجن ٧٢/١ــ٢)

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » (٧٢/١٤)

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء ٢١/١٠٧) .

(٥) والاسلام نور

ومن طبيعة النور أن يكون واضحا بنفسه ، وموضحا لغيره . أى أن الاسلام يبين للناس الحقائق ، ويدلهم على طريق الخير ، بصورة يقبلها العقل وتتفق مع الفطرة . ومن ثم لا غموض فيه ولا خرافة ، ولا تكليف بما لا يطاق . ومن نتائج نشر هذا الهدى بين الناس أن يخرجهم من الظلمات الى النور ، ولهذا فنشره بين الناس وتبيينه لهم فرض على كل مسلم عالم عامل بالاسلام . ومتى تحقق التبيين انتفى الاكراه .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه

سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (المائدة ٥/١٥ ــ ١٦) ٠

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » (ابراهيم ١٤ / ١) ٠

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (الروم ٣٠/٣٠) ٠

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (النحل ١٦/٤٤) ٠

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (البقرة ٢/٢٥٦) ٠

(٦) والنور واحـــد

لأن مصدره وهو الحق تبارك وتعالى واحد ، ومن ثم فطريق النجاة للانسان طريق واحد ، لا طريق غيره ، وهو الاسلام ٠ أما الطرق الأخرى فتبتعد به عن النجاة وتورده موارد الهلكة ؛ وهى طرق كثيرة وملتوية ٠ ولذلك لا يرد لفظ « النور » فى القرآن الا مفردا ؛ بينما لا ترد الظلمات الا جمعا :

« ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (النور ٢٤/٤٠) ٠

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »

(الأنعام ٦/١٥٣)

(٧) وكما أن الطريق واحد فهو طريق مستقيم

ولذلك عرف الاسلام بأنه دين الصراط المستقيم واتباع هذا الصراط هو الهدى والانحراف عنه هو الضلال :

« من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » (٦/٣٩)

« قل انني هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما » (٦/١٦١)

وكذلك كتاب الاسلام كتاب مستقيم لا عوج فيه :

« قرآنا عربيا غير ذى عوج » (الزمر ٣٩/٢٨)

« **أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما** » (**الكهف ١٨/١ ـ ٢**) .

(٨) الاسلام يهدى الانسان فى كل جوانب حياته الفردية والاجتماعية

فيقدم له ما يصلحه فى جسده وروحه وعقله ، ويربط بينه وبين أسرته ومجتمعه برباط المحبة والايثار والتعاون على البر والتقوى وكما يهديه فى العقيدة والعبادة والشريعة والسياسة والأخلاق والثقافة ، ويجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة . **يقول الله تعالى :**

« **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » (**القصص ٢٨/٧٧**) .

وليهتدى الانسان بهدى الاسلام فعليه أن يأخذه كلا متكاملا ، وبهذا يحيا الحياة الطيبة التى تحفل بالأعمال الصالحة ، المقصود بها وجه الله وحده . ويقول الله تعالى :

« **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** » (**النحل ١٦/٩٧**) .

٩ ـ يجمع الاسلام بين المبادىء الربانية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان وبين تشجيع الفكر البشرى على الابداع المتطور بتطور الزمان والمكان .

ولذلك يفتح الاسلام باب الاجتهاد ليس فى مجال التشريع فحسب بل وكذلك فى مجالات الفكر والعلوم ، والنظر والتطبيق . ومن ثم يأتى القرآن غالبا بالمبادىء العامة والكليات ويترك التفاصيل والجزئيات وطرائق التطبيق لاجتهاد الانسان طبقا لظروفه المتغيرة . **كما يكرر القرآن أن من أهداف الوحى به اثارة تفكير الانسان ودعوته الى دراسة الظواهر الكونية والانسانية والاستفادة منها :**

« **فاعتبروا يا أولى الأبصار** » (**الحشر ٥٩/٢**) .

« **انظروا ماذا فى السموات والأرض** » (**يونس ١٠/١٠١**)

« **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض** » (**الجاثية ٤٥/١٣**)

١٠ ـ الاسلام يقوم على نفس الاسس العامة التى اشتملت عليها الأديان الموحى بها قبله .

ومع هذا فهو مهيمن عليها أى أكمل منها جميعا ، لأنه يشتمل على خير ما فيها ،

ويضيف اليها ما يصلح للبشرية فى كل زمان ومكان :

« **وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** » (**المائدة ٥/٤٨**)

نعمة الهدى

عندما يتقبل الانسان الاسلام ويؤمن ويعمل به ـ فقد تقبل هدى الله وآمن وعمل به ·

وباتباعه هذا الهدى يخرج من الظلمات الى النور ، وينتقل من الشقاء الى السعادة · وهذه أجل نعمة يسبغها الله على الانسان بعد خلقه وهى نعمة هداه ·

ومن الدلائل على جلال هذه النعمة أن ورد الدعاء بها فى اكثر السور تكررا فى حياة المسلم وهى سورة الفاتحة ، **وفيها يقرأ المسلم داعيا ربه :**

« **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم** » (**الفاتحة ١/٦ ـ ٧**) ·

وقد من الله على المؤمنين بهذه النعمة فقال تعالى :

« **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » (**المائدة ٥/٣**)

ونعمة الاهتداء تؤهل المهتدى لأكرم صحبة فى دار البقاء :

« **ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا · ذلك الفضل من الله** » (**النساء ٤/٦٩ـ٧٠**)

ولا فضل للانسان فى هذه النعمة ، بل الفضل لله وحده ، وذلك لسببين :

١ ـ أن الانسان لم يأت بهذا الهدى من عند نفسه ، أو بجهده

الخاص ؛ بل اتاه الهدى من عند الله عن طريق الوحى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ٠

٢ ــ أن تقبل الانسان للهدى يرجع الى توفيق الله اياه : بأن شرح الله صدره للاسلام ؛ وكذلك خلقه على صورة مهيأة ((وليست مرغمة) بالفطرة والعقل والحس لقبول الهدى ٠

والى هاتين الحقيقتين تشير الايات الكريمة التالية :

« وقالوا » أى المؤمنون الصالحون : « الحمد لله الذى هدانا لهـذا » أى لهذا الدين الذى هدانا اتباعه الى الجنة

« وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » (الأعراف ٧/٤٣) ٠

« قل ان ضللت فانما اضل على نفسى وان اهتديت فبما يوحى الى ربى انه سميع قريب » (سبأ ٣٤/٥٠)

« يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين » (الحجرات ٤٩/١٧)

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » (الأنعام ٦/١٢٥)

الجهد الانسانى فى الاهتداء

هــل معنى هذا أن الانســـان مجرد آلة سلبية لا ارادة له ولا عمل سوى استقبال الهدى ؟ واذا كان كذلك فما المبرر الأخلاقى لمسئوليته ؟ أى لثوابه وعقابه ؟

الواقع أن الانسان ليس مجرد آلة ، وانما كائن كرمه الله فخلقه فى أحسن تقويم، وجعله عاقلا: أى قادرا على التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال كما جعله مريدا : أى قادرا على اختيار أحد الطريقين بعد التمييز بينهما ٠

ومن ثم فللانسان المؤمن جهد واضح فى اختيار الهدى ٠

وعملية الاختيار تستلزم منه جهودا كثيرة لا بد ان يقوم بها ليكون اختياره قائما على اقتناع واع لا على تقليد اعمى ٠ **ومن أهم هذه الجهود ما يلى :**

١ ـ جهد المعرفة :

ويتمثل هذا الجهد فى الدراسة والتفكير والبحث والمقارنة ٠ ويمكن ان نسميه جهد التحري للرشد ، اى جهد البحث عن الهدى الحق بين اركان المذاهب الباطلة والاديان المحرفة ٠ ثم جهد المقارنة بين الاسلام وغيره من تلك المذاهب والأديان ، حتى يتبين الانسان بلا أدنى ريب أن الاسلام وحده هو الدين الحق ، وهو الهدى ، وهو الرشد ، وان كل ما عداه ضلال وباطل ، وكذب وزور ، وزخرف وغرور ٠ والى هذا الجهد تشير الاية الكريمة :

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » (الجن ٧٢/١٤) ٠

وهذا الجهد قد اصبح فى عصرنا الحاضر واجبا لا مفر منه على كل مسلم عامل بالاسلام داع اليه ٠ وذلك لأن هذا العصر ـ اكثر من أى عصر مضى ـ أصبح يعج بالمذاهب الباطلة ، والأديان المنحرفة ، وبالمنظمات والمؤسسات والحكومات التى تناوىء الاسلام وتخطط لهدمه ٠ كما أصبح يعج بمن يزينون للناس الضلال ويزخرفون لهم الباطل ، ويشيعون بينهم الفساد والفحشاء ، بكل الوسائل ، ولا سيما وسائل التربية والاعلام ٠

٢ ـ جهد الارادة :

وهو عقد العزم على قبول الاسلام والالتزام به وحده منهجا لحياة الانسان ، ورفض كل ما عداه ٠

٣ ـ جهد العمل الصالح :

لا يكفى فى قبول الهدى مجرد تحرى الرشد وعقد العزم بل لابد من العمل الصالح والاعمال الصالحة فى الاسلام لا تكاد تحصى كثرة ، حتى ليمكن ان يعرف الاسلام بأنه دين الايمان والعمل الصالح ٠ وكلها تقتضى جهودا نفسية وعقلية وبدنية متواصلة تكاد تستغرق حياة المسلم ٠

ولعل أهم هذه الجهود وأعمها خيرا وبركة على الفرد والجماعة أن على المسلم أن يجعل حياته كلها نشاطا دائما دائبا فى عمل الخير لوجه الله، ومقاومة مستمرة لاهواء نفسه واهواء الناس ٠ وهذا هو الجهاد بمعناه الشامل فى الاسلام : أى جهاد النفس والغير فى سبيل الله ٠

وجهد المؤمن لانجاز اعمال صالحة يسمى فى القرآن احيانا السعى ،

كقوله تعالى « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » (الأنبياء ٢١/ ٩٤)

وهذا السعى كله حصيلة الانسان من هذه الدنيا :

« وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (النجم ٥٣/٣٩ — ٤١) ٠

ومن الواضح ان هذا السعى يقتضى اخلاقا فاضلة وصفات عالية لانه يتطلب جهودا مضنية لا يطيقها الا الصابرون ، وتضحيات لا يبذلها الا المؤمنون الصادقون :

ولنأخذ على سبيل المثال الانفاق :

فالانفاق — الى كونه عبادة — يعد من أهم الأعمال الصالحة فى الاسلام بل هو أحد الخصائص التى تميز المؤمنين المتقين ؛ أى لا يتحقق ايمان وتقى بدون انفــاق ٠

والانفاق لا يعنى انفاق المال فحسب ؛ بل يشمل كل أنواع العطاء الانسانى بقدر طاقة الانسان ٠ ولذلك يتكرر فى القرآن وصف المؤمنين المتقين بهذا التعبير الجميل الشامل :

« ومما رزقناهم ينفقون »

أى يعطون غيرهم من كل ما اعطيناهم من انواع النعم والطيبات ، ويدخل فيها الاموال والمواهب والطاقات ، وكل ما يستطيع المؤمن ان يقدمه لمجتمعه من معونة بلا مقابل الا ابتغاء وجه الله : فالغنى ينفق مالا ، والعالم علما ، والطبيب علاجا ، وذو الجاه والسلطان من جاهه وسلطانه ٠ وهكذا ٠

والانفاق من المال بوجه خاص يقتضى مقاومة شديدة لهوى النفس ، لأنها مطبوعة على الشح ، ولذلك وصف الأنصار فى القرآن بأنهم مفلحون لأنهم قاوموا هذا الشح وقهروه ، فهم :

« يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (الحشر ٥٩/٩)

ان انفاق المال ابتغاء مرضاة الله يعد دليلا على التزام المؤمن بهدى

الله ، ولذلك يكافئه الله بأجر من عنده ، **ويكفيه مشاعر الخوف والحزن كما قال تعالى :**

« **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » (**البقرة ٢/٢٧٤**) .

وكذلك الانفاق من العلم لا يقتصر على التعليم ، بل يشمل أنواعا كثيرة من الدعوة الى الله ، ونشر الحق والخير، أى نشر الاسلام بين الناس ، كما يشمل بوجه خاص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومعلوم أن كل هذا يعرض العلماء والدعاة الى ألوان كثيرة من المحن والشدائد لا يطيقها الا القليلون . فهم يقاومون ــ بالاضافة الى أهواء أنفسهم وشهواتهم ــ أهواء الناس وشهواتهم ، ويجابهون أئمة الجور بالانكار عليهم بل انهم يهددون ــ بمجرد وجودهم الربانى ونشاطهم القرآنى ــ نظم الضلال والكفر بالانهيار ، لأنهم يكشفون للناس تعفنها من الداخل وتآكلها بالشر والفساد . ولذلك فان من قتل منهم يعد فى الاسلام شهيدا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« **سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام الى امام جائر فامره ونهاه فقتله** » (**متفق عليه**)

وبالاجمال فالاهتداء يقتضى من المؤمن بذل الجهد كما قال تعالى :

« **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » (**العنكبوت ٢٩/٦٩**) .

وكما أن للانسان المؤمن جهدا واضحا فى اختيار الهدى فكذلك للانسان الكافر جهد واضح في رفضه ، ولا سيما بعد أن تبين له الفرق الهائل بين الهدى والضلال .

وهذا الرفض بعد التبين هو ما يسميه القرآن ارتدادا ،وذلك في وصفه لرفض كفار العرب رسالة الاسلام ، **فقال تعالى :**

« **ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم** » (**محمد ٤٧/٢٥**) .

فقد بينت الآية أن ارتدادهم كان اختياريا وكان متعمدا ، لأنه كان عن علم وبعد تبيين وتبين . **والسبب الحقيقى فى رفضهم الهدى أنه يعارض أهواءهم :**

« فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم « (القصص ٢٨/٥٠)

وكذلك رفضت ثمود الهدى بعد أن تبينته ثم فضلت عليه الضلال :

«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» (فصلت ٤١/١٧)

وهكذا الحال فى كل من رفضوا هدى الله بعد أن تبين لهم :

« وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (التوبة ٩/١١٥)

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » (النساء ٤/١١٥)

اهمية تبيين الهدى

مما سبق يتضح لنا أهمية تبيين الاسلام ؛ وضرورة تقديمه للناس باسلوب مفهوم ومشوق ، يحببهم فيه ولا ينفرهم منه ، مع ابراز أنه البديل الوحيد لحل مشاكلهم ، وأن اتباع هداه هو الطريق الأقوم لتحقيق الحياة الطيبة ٠

وقد وردت آيات كثيرة تؤكد اهمية هذا التبيين

فمن أجله أرسل الله الرسل ليبينوا للناس هدى الله ، فتتضح مسئوليتهم فى الاختيار ، **ولا يكون لهم عذر فى الضلال :**

«رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (النساء ٤/١٦٥) ٠

وقد كان من عدل الله ورحمته بالناس أن رتب المسئولية على الاختيار الواعى ، أى الاختيار القائم على المعرفة ٠ فقضت حكمته تعالى ألا عقاب الا بعد التبيين :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء ١٧/١٥)

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبليغ ، لأن الاخلال به اخلال بالرسالة نفسها ، وتضييع للحكمة منها :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » (المائدة ٥/٦٧)

وكما أن التبيين مهمة الأنبياء ، فكذلك هو مهمة العلماء لأنهم ورثة الأنبياء ، وعلى ذلك أخذ الله ميثاق علماء أهل الكتاب :

« لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (آل عمران ٣/١٨٧) .

ولذلك لعن الله كل من كتم هداه وحال بين نوره وبين الناس :

« ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا » (البقرة ٢/١٥٩-١٦٠)

كما لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من أوتى علما فكتمه :

« من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » (أبو داود والترمذى) .

وتاكيد القرآن للتبيين يدلنا على حقيقتين :

١ - ان تبيين الاسلام للناس مسئولية كبرى تقع على عاتق العلماء والدعاة لانهم ورثة الأنبياء . وواجب الحكومات « الاسلامية » أن تساعدهم لا أن تقتلهم كما كان اليهود يقتلون أنبياءهم بغير حق .

٢ - أن تعاليم الاسلام اذا شرحت للناس ببساطة ووضوح يقبلها كل ذى عقل سليم،وفطرة مستقيمة،وأن الاسلام ينتشر بالاقناع لا بالاكراه ولذلك اقترن تحريم الاكراه بتحقيق التبين فى قوله تعالى :

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (البقرة ٢/٢٥٦).

٣ ــ شخصية المهتدى وهو المسلم الحق

يقول الله تعالى :

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم » (الحج ٢٢/٥٤) ٠

هذه الآية بينت الخطوات الطبيعية السليمة للاهتداء ، وهى ثلاث :

١ ــ العلم : أى العلم بكل جوانب الاسلام من عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاق وسياسة وثقافة ٠٠ وذلك يكون بدراسة هذه الجوانب كما وردت فى القرآن والسنة ، وكما شرحها العلماء العاملون خلال العصور ٠

٢ ــ الايمان : دراسة الاســلام فى مصادره السابقة تؤدى بكل منصف الى التأكد من أنه الدين الحق ؛ وأنه من عند الله ، ومن ثم تؤدى الى الايمان به ، وكلما ازداد المسلم معرفة بالاسلام ازداد ايمانا به ٠

٣ ــ العمل : وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة باخبات القلب ، أى خضوعه للحق وهو الاسلام ٠ وهذا الخضوع لا يتحقق الا بالعمل بتعاليم الاسلام والاهتداء بهديه ٠

وهذه الخطوات الثلاث تشكل فى نفس الوقت العناصر الأساسية فى تكوين شخصية المسلم ، أى شخصية المهتدى ٠ ومن ثم فهى متداخلة ومتكاملة ولا تغنى واحدة منها عن أخرى ٠ فالمسلم يتعلم ويعلم ويؤمن ويعمل فى سلسلة مترابطة من النشاطات النفسية والمادية المتكاملة التى تؤدى اذا استمرت الى زيادة العلم والايمان والعمل وليست الزيادة مجرد زيادة « كمية » ، بل هى بالدرجة الأولى ارتقاء فى نوعية العلم والايمان والعمل ، فيصبح العلم يقينا ، ويزداد القلب بالايمان اطمئنانا ، ويزداد العمل صلاحا ٠

وقد وردت الآيات التى تدل على أن الله يزيد عباده المخلصين فى هذه الثلاثة ومنها قوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم :

« وقل رب زدنى علمـا » (طه ٢٠/١١٤) ٠

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم أولئك الذين « اذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » (الأنفال ٨/٢)

وبأنهم كذلك يزدادون ايمانا بتحدى الكافرين لهم ، واحاطة المحن والشدائد بهم :

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا » (آل عمران ٣/١٧٣)

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما » (الأحزاب ٣٣/٢٢) ٠

وقوله تعالى عن المهتدين :

« ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » (مريم ١٩/٧٦) ٠

وعن المؤمنين والعلماء :

« يرفع الله الذين آمنـوا منكم والذين أوتوا العلم درجـات » (المجادلة ٥٨/١١) ٠

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى » (البقرة ٢/٢٦٠) ٠

لم يكن ابراهيم عليه السلام يطلب أصل الايمان ،فهذا لا شك كان موجودا عنده ، ولكنه كان يطلب ترقيا فى نوعية الايمـان ، وهو اطمئنان القلب ٠

وفيما يلى نبين هذه العناصر الأساسية الثلاثة (العلم والايمان والعمل) وآثارها فى شخصية المسلم ٠

العلم

لابد ان نعترف بالحقيقة المروعة ، وهى أن معظم أتباع دين العلم يتخبطون فى ظلمات الجهل ٠ وهو جهل فاضح ومركب ٠

أما أنه فاضح فلأنه جهل بدينهم الذى يدعوهم الى خير الدنيا والآخرة ومن ثم يدعوهم الى المعرفة المتكاملة بعلوم الدنيا والآخرة ٠ وهم يجهلون كليهما ٠

الاسلام دين البر ٠ والبر ليس صورا ومظاهرا ، وانما هو ايمان واخلاق فاضلة وأعمال صالحة :

« ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ٠ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» (البقرة٢/١٧٧) ٠

ومعظم المسلمين يعلمون ويعشقون ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ ثم يعكسون هذا الظاهر على الاسلام ، فيرونه ويمارسونه على أنه دين الصور والاشكال والمظاهر والطقوس ٠

ولذلك ترى كثيرا منهم (حتى بعض من يسمون أنفسهم « علماء ») يهتمون بالفاظ العقيدة لا بصدقها فى قلب المؤمن ، ولا بآثارها فى نفسه وحياته ٠ وبمظاهر العبادة لا بروحها وكيفية بنائها الشخصية المسلمة والأمة المسلمة ٠ ويعلمون كثيرا من « التفاصيل الفقهية » بحرفية قاتلة تكاد تزهق روح الشريعة وتطمس نورها ٠

وهذه نفس الظاهرة التى كانت سائدة بين الفقهاء فى عصر الغزالى ، أى منذ عشرة قرون ٠ فقد لاحظ الغزالى على فقهاء عصره أنهم شغلوا أنفسهم وشغلوا الناس بالجزئيات الفقهية والتفريعات الخلافية ، حتى « لو سئل فقيه عن معنى ٠٠ الاخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الربا ـ لتوقف فيه ، مع أنه فرض عين فى اهماله

هلاكه فى الآخرة . ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج الى شيء منها » (١)

وحتى المعرفة بالقرآن لا تكاد تتجاوز عند معظم المسلمين حناجرهم فلا نرى أخلاق القرآن متمثلة فى كثير من دارسيه وقارئيه ، بل ولا تجد عندهم معرفة عميقة بآياته ودلالاتها . ويكفى أن نشير الى أن اليهود ذكروا فى القرآن وأشير الى تاريخهم وصفاتهم وتحريفهم للتوراة فى كثير من الآيات ومع ذلك فكم من « علماء » المسلمين يعرفون بدقة تاريخ اليهود وتحريفهم لكلمات الله وفلسفة الصهيونية العالمية ومخططاتها للقضاء على الاسلام ؟

وجهل المسلمين بدينهم هو كذلك جهل مركب ، لأنه ليس لدى الكثيرين منهم الشجاعة الكافية للاعتراف بهذا الجهل ومحاولة تداركه

خصائص المعرفة

المعرفة بالاسلام ليس معناها حشو ذهن المسلم بمعلومات كثيرة عن الاسلام . فالعلم القليل النافع خير من الكثير المتمثل فى معلومات مكدسة فى الذهن لا يستفاد منها فى تغيير الواقع النفسى والاجتماعى والسياسى للمسلمين ، أو معلومات مشوشة مضطربة لا تعين على توضيح مشكلة فضلا عن حلها ، أو أقوال مكررة مملولة منقولة عن مقلدين لمقلدين ، لا أصالة فيها ولا اجتهاد ولا مواجهة لمشاكل العصر وتحدياته ، كما هى حال معظم الانتاج الفكرى والفقهى خلال القرنين الماضيين .

المعرفة بالاسلام لها خصائص تميزها عن غيرها من أنواع المعرفة ومن أهمها :

● **أنها شاملة :** فهى لا تقتصر على جانب واحد أو عدة جوانب من الاسلام بل تشمل دراسة كل جوانبه من عقيدة وعبادة وتشريع وأخلاق وسياسة واجتماع وثقافة ... وهذه الدراسة لا تقتصر على الظاهر الانسانى بل تشمل أيضا الباطن (وعلم الباطن عند الصوفية العاملين بالكتاب والسنة يشمل الأخلاق والتربية وعلم النفس ، أى يشمل كل حياتنا الروحية) .

---

(١) احياء علوم الدين ٣٦/١ ــ ٣٧ .

● **انها متكاملة :** فالجوانب السابقة ليست أجزاء منفصلة بل مترابطة فى « كل » واحد • وهذا الترابط المتكامل يمثل وحدة المعرفة والسلوك فى الاسلام • فالعقيدة ترتبط بكل جوانب الاسلام وكذلك العبادة والشريعة والأخلاق •• وهكذا • وكلها تنعكس فى سلوك المسلم وأعماله •

● **انها تغييرية :** فهى ليست مجرد نظريات خيالية ومفاهيم فلسفية ، بل تعاليم ومناهج تهدف الى تغيير نفس الانسان من الداخل ، ومن ثم الى تغيير بيئته الخارجية • ومن هنا تحمل دائما ذلك العنصر الثورى الذى يقصد الى التغيير ويخطط له وينفذه •

فنحن لا ندرس شيئا عن الاسلام لمجرد معرفته بل لتطبيقه علينا وعلى غيرنا • وهذا يعنى تغيير الواقع الفاسد فى النفس الانسانية وفى المجتمع الانسانى فالمسلم يدرس العقيدة فى الاسلام ليصحح ايمانه ويثبته أولا ثم ليصحح العقائد الباطلة من حوله ، وكذلك يدرس الأخلاق الاسلامية ليتحلى بها ثم ليحلها محل الأخلاق الجاهلية السائدة ، ويدرس الشريعة ليعمل بها ثم لبحلها محل القانون الوضعى ، ويدرس السياسة ليحكم نفسه وأسرته وجماعته ثم أمته حكما اسلاميا ••• وهكذا •

● أنها تستوعب كل طاقات المسلم : **فتقتضيه بذل جهود شتى متعاونة :**

فتقتضى جهدا عقليا فى البحث والدراسة والاستيعاب •

● وتقتضى أصالة فكرية ولا سيما فى تدبر آيات القرآن وظواهر الكون •

ومن الواضح أن تدبر القرآن لا يقتصر على مجرد فهم آياته ، بل يتجاوز ذلك الى تأمل معانيها والخشوع لها والعمل بها والاستنباط منها (اذا كان المسلم مجتهدا) •

وكذلك تدبر ظواهر الكون لا يقتصر على مجرد ملاحظتها ، بل يقتضى دراستها ومعرفة قوانين خلقها وتسخيرها ، ووجه الاستدلال بها على صفات خالقها •

والعلماء المسلمون يجعلون هذه الأصالة الفكرية صفة من أهم الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها العالم المسلم •

فالعامرى يؤكد أهمية الاجتهاد ورفض التقليد ، ويشترط فى

العالم المسلم أن يكون « مستنكفا عن اتباع أشياخه بحسن الظن » وأن يتجنب التقليد لمن لا يشهد له بالعصمة (١) ·

والغزالي يرى أن العالم المسلم ينبغي « أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره » (٢) ·

● كما تقتضي هذه المعرفة جهودا بدنية ومادية باتباع تعاليم الاسلام في النظافة والطهارة والطعام والشراب والنوم والكسب الحلال والاقامة والترحال ·

● أنها تربط المسلم بالله وبالأخلاق الربانية : فتقتضي أن يتحلى الدارس للاسلام بأخلاق الاسلام وعلى راس هذه الأخلاق تقوى الله :

« واتقوا الله ويعلمكم الله » (البقرة ٢٨٢/٢) ·

ومن ثمرات هذه المعرفة خشية الله :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر ٢٨/٣٥) ·

ولذلك لا يجوز أن يتلقى المسلم هذه المعرفة الا من مصدري الاسلام وهما القرآن والسنة ، أو من علماء مسلمين يوثق بدينهم وتقواهم ·

ويشترط حجة الاسلام أن يتحلى العالم المسلم بأخلاق من أهمها .

الزهد في الدنيا ، والتواضع ، والعدل (لأنه كالقاضي) ، وأن يعمل بعلمه ويتجنب الجدل ، وحياة الترف ، ومخالطة الحكام (٣) ·

ويقول ابن سيرين : « ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم »

ويترتب على هذا انه لا يجوز للمسلم ان يتلقى دينه من مصدر او شخص ينتمي لاحدى الطوائف التالية :

١ ــ المستشرقون ·

٢ ــ المبشرون ·

---

(١) أبو الحسن العامري : الاعلام بمناقب الاسلام تحقيق احمد عبد الحميد غراب ص ٤٢ ·
(٢) الأحياء : ١٣٣/١ ·
(٣) احياء علوم الدين ٩٨/١ وما يليها ·

٣ ــ الشيوعيون ٠

٤ ــ العلمانيون ٠

٥ ــ المسلمون الذين يدينون بالولاء الثقافى لاحدى هذه الطوائف ٠ لأن هؤلاء جميعا اما يهود أو نصارى أو ملاحدة (أى ضالون كافرون)، أو منافقون موالون لهم فهم منهم ٠ يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين أمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » (آل عمران ٣/١٠٠) ٠

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم » (البقرة ٢/١٠٩) ٠

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهــدى ولئن اتبعت أهواءهم بعــد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (البقرة ٢/١٢٠) ٠

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم » (المائدة ٥/٥١) ٠

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » (النجم ٥٣/٢٩ ــ ٣٠) ٠

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ٠ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » (النساء ٤/١٣٨ ــ ١٣٩) ٠

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهــدوكم وقد ضلوا ، وانكم اما أن تصدقوا بباطل ، واما أن تكذبوا بحق ٠ وانه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعنى » « رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبى عن جابر رضى الله عنهم) (١) ٠

---

(١) راجع بتوسع : سيد قطب : **معالم فى الطريق** ص ١٢٦ ومايليها ٠

العلوم الاسلامية

العلوم التى ينبغى أن يدرسها المسلم لمعرفة دينه والعمل به ينبغى ان تمثل تلك الخصائص التى ذكرناها آنفا ، وبذلك تسهم فى بناء الشخصية المسلمة والأمة المسلمة ·

وأهم هذه العلوم وأكثرها ضرورة للمسلم هى العلوم التالية :

١ ـ القرآن وعلومه ·

٢ ـ السنة وعلومها ·

٣ ـ العقيدة ·

٤ ـ الفقه وأصوله ·

٥ ـ الاخلاق الاسلامية ·

٦ ـ السياسة الاسلامية ·

٧ ـ السيرة والتاريخ الاسلامى ·

٨ ـ اللغة العربية وعلومها ·

٩ ـ المؤامرات على الاسلام ولا سيما مؤامرات التبشير والاستشراق ·

١٠ ـ فقه الدعوة والعمل الاسلامى ·

وأود أن أضيف الى هذه العلوم علما آخر لم يتحدث عنه العلماء المسلمون كثيرا (فيما وصل الينا من تراثهم) ، وانما أشاروا اليه اشارات عابرة خلال موضوعات أخرى ·

والواقع أن هذا العلم لا يستغنى عن العلوم الاسلامية الأخرى ، ولكنه يجمعها جميعا ، ويعتبر أهمها فى تكوين شخصية المسلم ، وفى احداث التغيير النفسي بها ، ومن ثم فى إحداث التغيير الشامل فى كيان الأمة الاسلامية بأسرها ·

وذلك العلم هو تدبر القرآن ·

تدبر القرآن

ينص القرآن الكريم على أن من أهداف نزوله أن يتدبره الناس ·
يقول الله تعالى :

« كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته » (ص ٣٨/٢٩) ·

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالقرآن بأنهم :

« يتلونه حق تلاوته » (البقرة ٢/١٢١) ·

والتدبر حق من حقوق التلاوة ·

وقد استنكر الله تعالى على الكفار غفلتهم عن تدبر كتابه ، فقال سبحانه :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد ٤٧/٢٤) ·

كما وصف الكافرين بأن من سماتهم الاعراض عن التفكير فى آيات الله فى القرآن وفى الكون معا · قال تعالى :

« وما تاتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين » (الأنعام ٦/٤) ·

وقال تعالى :

« وكاين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (يوسف ١٢/١٠٥) ·

وصلة المسلم بالقرآن ضرورية ، ليس لمجرد دراسته دراسة نظرية ، ولا لمجرد « تنمية » ثقافته ، بل لتربية شخصيته وامدادها بما يحييها ويزكيها ويزيدها هدى ·

وحين تتربى شخصية المسلم على القرآن فان خيرات هذه التربية لا تقتصر على صاحبها بل تنعكس على غيره هدى وحياة ونورا ·

القرآن يحيي النفوس :

والقرآن يحيي النفوس لأنه كتاب الهدى، والنفس الضالة في حالة تشبه الموت اذ ان فطرتها الخيرة وكل طاقاتها البناءة تكون معطلة ، بينما تكون أهواؤها وشهواتها مطلقة العنان ، تعمل عملها الشيطاني الحيواني الذي يهبط بالانسان من احسن تقويم الى اسفل سافلين **وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه حياة النفوس فقال تعالى :**

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » (الأنفال ٢٤/٨) .

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (الأنعام ١٢٢/٦) .

كما وصف الكفار بأنهم عطلوا طاقاتهم الحسية والعقلية ولم يستعملوها في احياء أنفسهم بالهدى ، **فتعطلت استجابتهم له :**

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (الأعراف ١٧٩/٧) .

« فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (الروم ٥٢/٣٠ - ٥٣) .

ومن أهم وجوه الاعجاز التي لم يبحثها العلماء المسلمون كثيرا أن القرآن كالمطر . فكما ان المطر - باذن الله - يحيي الأرض بعد موتها ، فالقرآن - باذن الله - يحيي النفوس بعد موتها . وكما أن المطر لا يحيي كل أرض ، لأن الأرض الخبيثة التربة لا تقبل الماء ولا تمسكه ، فكذلك القرآن لا يحيي كل نفس ، لأن النفس الكافرة الخبيثة ، لا تقبل الهدى ولا تتأثر به . **وادق تصوير لهذه الحقيقة قوله صلى الله عليه وسلم :**

« مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا : فكانت منها بقعة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله عز وجل به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وكان منها قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (متفق عليه) .

فالمثل الأول للمسلم الحق يحيا ويحيي غيره بالهدى ، والثاني للمسلم الذى ينفع غيره بالهدى ولا ينتفع هو به ، والثالث للكافر المحروم من الانتفاع والنفع ، ومن الحياة والاحياء ٠

شروط التدبر :

لاحداث هذا الأثر ، وهو أن تحيا النفس وتحيي غيرها بالهدى ، لا يكفي أن تكون صلة المسلم بالقرآن أية صلة كانت ، بل لا بد أن تكون هذه الصلة صلة تدبر ٠ **ولتكون كذلك يشترط فى التدبر شروط من أهمها :**

١ ـ أن يكون مسلما عاملا بالاسلام : لقوله تعالى :

« ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (فاطر ٣٥/٢٩) ٠

فهذه الآية تقرر بوضوح أن الذين يتلون كتاب الله ليسوا مجرد « قراء » لا يتجاوز القرآن حناجرهم ، بل هم مسلمون صادقون يتلون القرآن ويعملون به ، فيقيمون الصلاة ولا يقتصرون على الزكاة بل يتجاوزونها الى الانفاق سرا وعلنا مما رزقهم الله ٠ أما المسلم الذى يتلو القرآن ولا يعمل به ، **فهو ممن ينطبق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

« رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه » ٠

٢ ـ **أن يكون ملما** بالعلوم التى أشرنا اليها آنفا : فهذه العلوم كلها تعين على تدبر القرآن ، كما تستعين به ٠

٣ ـ **أن نكون صلته** بالقرآن مباشرة : أى أن يفهم القرآن بدون واسطة ، فان وجود الوسائط بين المسلم والقرآن (كالترجمة وبيان المعنى) يضعف نور القرآن فى القلب ، وأثره فى النفس ٠ وكلما كثرت هذه الوسائط ضعف نوره وأثره لأنها تبعد بالمسلم عن النبع الأصلي ومن مصدر النور ٠ وليس معنى هذا ألا يستعين المسلم بالترجمة والتفسير مثلا ، بل يجب عليه أن يستعين بكل ما يعينه على الفهم ، بشرط أن يعتبر ذلك كله وسائل الى غاية أعظم ، وأن كل الوسائل والوسائط مهما بلغت **قيمتها فلن يقوم أى منها مقام النص القرآنى ولن يؤثر اثره ٠ وقد قال الله تعالى :**

« **واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** » (**الأعراف ٧/٢٠٤**) .

ولا تتحقق الحكمة من السماع والانصات — وهى العمل بالقرآن — الا بتحقيق فهمه . والأمر بالسماع والانصات معا يدل على أنه لا يكفى مجرد الفهم عن أى طريق ، بل عن طريق الصلة المباشرة بالقرآن وهى سماعه والانصات له ، او تلاوته بنفسه .

٤ — أن تكون صلته بالقرآن مستمرة : أى أن يداوم المسلم كل يوم على تلاوة بعض آيات القرآن وتدبر معانيها ويتأكد أنه يعمل بها ، **ومهما كانت هذه الآيات قليلة فالقليل المتصل خير من الكثير المنقطع ولقوله تعالى :**

« **فاقرؤا ما تيسر منه** » (**المزمل ٧٣/٢٠**) .

« **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** » (**الاسراء ١٧/١٠٦**) .

وقد كان الصحابة لا يستكثرون من القرآن فى الجلسة الواحدة لأن الصحابى كان يحس أنه انما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه . فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه (١) .

٥ — أن يكون تدبره مصحوبا بخشوع القلب : وخشوع القلب هو تواضعه لله وخشيته منه وخضوعه لأمره ونهيه . واذا تواضع القلب واذعن تواضع الانسان واذعن بكل جوارحه لتعاليم القرآن وعمل بها .

وهذا الشرط — وهو التدبر الخاشع للقرآن — هو أهم الشروط . فبدونه لا يكون للقرآن أثر فى نفس المسلم أو فى حياته وحياة الآخرين .

وهذا ما يحدث الآن للمسلمين : فكثير منهم يتلون القرآن أو يسمعونه يتلى بأعذب الأصوات ، وبأدق الشروط « اللفظية » للتلاوة ، ومع ذلك لا ترى له أثرا فى نفوسهم وفى سلوكهم وذلك لافتقار التدبر الخاشع حتى عند بعض قرائه وعلمائه لأن هؤلاء فى الحقيقة يتاجرون بقراءته وتفسيره ، يشترون بآيات الله ثمنا قليلا .

وهذا نقيض الخشوع كما قال الله تعالى :

« **خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا** » (**آل عمران ٣/١٩٩**) .

(١) سيد قطب : معالم فى الطريق ص ١٥ .

وقد وردت آيات كثيرة تحث المؤمنين على الخشوع للقرآن ، وتبين أن التدبر الخاشع لآياته يحيى القلوب كما يحيى الله الأرض بعد موتها · يقول الله تعالى :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون · اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » (الحديد ٥٧/١٦ ـ ١٧) ·

وفى هاتين الآيتين تحذير للمؤمنين ألا يحدث لهم ما حدث لليهود والنصارى من قبل ، حيث اتسعت الهوة ـ بمرور الزمن ـ بينهم وبين وحى الله فى صورته الاصلية ، فحرفوه ·

« ونسوا حظا مما ذكروا به » (المائدة ٥/١٣) ·

«فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا» (آل عمران ٣/١٨٧)·

وذلك لأنه لم يعد له أثر فى قلوبهم ، فتحولت الى قلوب فاسية . ومن ثم تحولت حياتهم الى حياة فاسقة ·

وتوالى هاتين الآيتين يدل بوضوح على أن هناك صلة وثيقة بين احياء القرآن للقلوب واحياء الأرض بعد موتها ، بشرط أن يتحقق الخشوع فى كليهما (أى فى القلوب والأرض) · وقد ورد وصف الأرض بالخشوع فى سياق احيائها بماء المطر فى قوله تعالى :

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحى الموتى » (فصلت ٤١/٣٩) ·

وهذا لأن الخشوع ـ كما رأينا فى تعريفه ـ نوع من التواضع يهيىء الانسان لقبول نعمة الله بالهدى ، وشكره عليها عن طريق الاهتداء بها ، فتظهر آثارها عليه فى أخلاق جميلة وأعمال صالحة · وكذلك يهيىء الأرض لقبول نعمة الله بالمطر · والأرض « تشكر » الله على هذه النعمة بأن « تسلم » له أى تخضع لقوانينه فى الخلق والأمر كما قال تعالى :

« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها » (آل عمران ٣/٨٣) ·

فتظهر آثار هذه النعمة عليها فى نباتات جميلة وحدائق ذات بهجة :

« **فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحى الموتى » (الروم ٣٠/٥٠)** ٠

وبدون هذا التواضع لا يكون الانسان مهيأ لقبول الهدى ٠ فالكافر فى أعماق نفسه يدرك أن الهدى حق ، **ولكنه لكبريائه يرفضه كما قال تعالى :**

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (النمل ٢٧/١٤) ٠

وهذا يفسر لنا لماذا تختلف ردود الفعل عند سماع القرآن باختلاف نفسيات السامعين ٠ فذو الفطرة الخيرة يسمعه فيتدبره فيتأثر به ويخشع له ، أما ذو الفطرة الفاسدة فيحاول ألا يسمعه ، واذا سمعه لا يتدبره ، فلا يتأثر به ولا يخشع له ٠ **ولهذا كان الكفار يقولون :**

« **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (فصلت ٤١/٢٦)** ٠

ولما سمع عمر بن الخطاب القرآن آمن وقال : « ما أحسن هذا الكلام واكرمه ! » وفى رواية أخرى أنه قال : « فلما سمعت القرآن رق قلبى فبكيت ودخلنى الاسلام » ٠

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن أعجبته بلاغته وقال : ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه يعلو ولا يعلى ٠ ولكنه بعد تفكير طويل تغلب كبرياؤه على اعجابه فلم يؤمن ووصف القرآن بأنه : سحر يؤثر ، وبأنه ليس وحيا ، بل من كلام البشر ، كما قال تعالى عنه :

« **انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم ادبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ٠ ان هذا الا قول البشر » (المدثر ٧٤/١٨ ـ ٢٥)** ٠

وفى القرآن آيات أخرى تبين أن الاهتداء الحقيقى بكتاب الله لا يتحقق الا بالتدبر الخاشع لآياته ٠

ففى سورة الاسراء (١٧) آيات تؤكد أن القرآن معجزة :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٨٨) .

ولكنه ليس معجزة حسية كتلك المعجزات التى كان الكفار يطالبون بها الرسول صلى الله عليه وسلم : كأن يفجر لهم ينبوعا ، أو تكون له جنة ، أو بيت من زخرف ، أو يسقط عليهم السماء ، أو يأتى بالله والملائكة ، أو يرقى فى السماء ويعود بكتاب يقرؤنه (٩٠ ـ ٩٣) .

ونجد فى نفس السورة آيات تصف القرآن بصفات تشير الى الوجوه الخفيفية لاعجازه ، **ومن هذه الوجوه :**

أنه « يهدى للتى هى أقوم » (٩)

أنه « يحتوى على الحكمة » (٣٩)

وأنه متنوع الأساليب والأمثال للتعبير عن الحق والدلالة على الهدى (٤١ ، ٨٩)

وأنه « شفاء ورحمة للمؤمنين » (٨٢)

لكنه « لا يزيد الظالمين الا خسارا » (٨٢)

وفى السورة نفسها ندرك لماذا لم يهتد الكافرون بهدى القرآن : وذلك لأن بين القرآن وبينهم حاجزا نفسيا يحول بينهم وبين أن يفهموه ، فضلا عن أن يتدبروه فيعملوا به ويهتدوا بهديه :

« واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » (٤٥ ـ ٤٦) .

وتنتهى السورة بالتأكيد على أن القرآن حق ، وأنه نزل مفرقا ليقرأه الرسول صلى الله عليه وسلم على الناس على مهل ، وذلك ليتدبروه فيحدث فى أنفسهم أثره من خلال ذلك الخشوع الذى يحدثه فى قلوب « الذين أوتوا العلم » . **حتى انهم كانوا :**

« اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا » ، « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » (١٠٧ ، ١٠٩) .

وكل هذه الآيات ـ فى سياقها ـ تؤكد ما قلناه من أن الاهتداء بكتاب الله لا يتحقق الا بالتدبر الخاشع لآياته .

مراحل التدبر :

(بالاضافة الى حلقات العلوم والذكر المعروفة أقترح على اخوانى العاملين انشاء حلقة لا لمجرد تفسير القرآن بل لتدبره وما ورد هنا عن مراحل التدبر ليس قواعد جامدة بل اقتراحات يمكن أن تعدل أو تغير طبقا لاجتهاد أصحاب الحلقة) ٠

١ ـ تبدأ الحلقة بتلاوة آيات قليلة يتلوها قارىء يعطى التلاوة حقها ٠

٢ ـ الاستماع والانصات اليها فى خشوع وترك آثارها تصل الى القلب ٠

الأثر النفسى للآيات لا يقتصر على معانيها ، بل هو المحصل الكلى الناتج من مجموع عناصر عديدة منها :

(أ) طريقة التلاوة وصوت القارىء ٠

(ب) جرس الألفاظ والتراكيب وأواخر الآيات ٠

(ج) نظم الكلمات ٠

(د) الصـــور ٠

(هـ) المعانـى ٠

وهذه العناصر تثير استجابات مختلفة باختلاف شخصيات السامعين ٠ وأعمقهم استجابة هو أكثرهم خشوعا وأرهفهم حسا :

« **انما يستجيب الذين يسمعون** » **(الأنعام ٣٦/٦)** ٠

٣ ـ التأكد من فهم معانيها الأساسية ٠

٤ ـ التأمل فى هذه المعانى الأساسية ومحاولة استنباط معان أخرى منهـا ، لأن القرآن يعبر عن معـان كثيرة فى ألفـاظ قليلة ، **وكلمات الله لا تنفد معانيها :**

« **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** » **(الكهف ١٠٩/١٨)** ٠

٥ ـ الاشارة الى الآيات الأخرى المتصلة بالموضوع (كما سـنرى فى النموذج) ٠

٦ ـ التأكد من تطبيق ما ينبغي تطبيقه منها فى حياة أفراد الحلقة وأسرهم ٠

واذا كان هناك خلل فى التطبيق فينبغى البحث عن أسبابه ، وعن أنجح الوسائل لتلافيه ٠

٧ ـ البحث عن أنجح الوسائل للتطبيق التدريجى فى حياة الأمة ٠

نموذج يمثل وحدة المعرفة والسلوك
سورة الطلاق ٦٥/١٢ آية

ـ تجمع هذه السورة بين التشريع والعقيدة والعبادة والاخلاق والتاريخ والعلوم الكونية ٠ وبذلك تمثل وحدة المعرفة وتكاملها وارتباطها الوثيق بالسلوك الانسانى ٠

ـ فهى تعالج أساسا مشكلة الطلاق ،.وأنه اذا كان لا بد منه فينبغى أن تراعى فيه قواعد وتوجيهات وشروط معينة (فصلتها كتب الفقه)(١)٠

ـ ولكن السورة ليست مجرد تشريع صيغ فى لائحة قانونية عن الأحوال الشخصية (انظر الى هذه المصطلحات الحديثة كم هى جافة وخالية من كل عنصر انسانى ، ومع ذلك تدعى « تقنين » العلاقات الانسانية فى حياة الأسرة) بل هى نموذج للسلوك الاسلامى المتكامل فى العلاقات الأسرية ٠

ـ فالله يأمر المسلم أن يعامل المرأة التى ارتبط بها برباط المودة والرحمة (أى الزواج) ويوشك فراقها ـ أن يعاملها معاملة اسلامية ٠ فلا يخرجها من بيتها (أى أنه ليس بيته بل بيتها حتى تنتهى العلاقة الزوجية) وأن يتأنى قبل أن يقرر نهائيا قطع تلك العلاقة بها :

« **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا** » (١) ٠

فاذا قرر معاشرتها فبالمعروف أو فراقها فبالمعروف ٠ وقد ورد الحث على أن يكون الفراق بما هو فوق المعروف ، **أى الاحسان** :

« **الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان** » (البقرة ٢٢٩/٢) ٠

---

(١) راجع سيد سابق ٠ فقه السنة ٢٤١/٢ وما بعدها

وهذه لاشك معاملة نبيلة ترتفع بالمسلم فوق الاستجابة للانفعالات الهابطة المتغيرة ولذلك لم يجعل الكره مبررا للطلاق فى القرآن ، لأن انفعالات الرجل قد تعميه عن فضائل المرأة ومزاياها :

« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (النساء ٤/١٩) ٠

ــ وقد ورد الأمر بتقوى الله والحث عليها خمس مرات فى السورة ، مما يؤكد التشديد على وجوب معاملة المرأة المطلقة معاملة كريمة ، وأن أى هضم لحقوقها فى الاسكان والانفاق والمعاشرة ــ يعتبر تعديا لحدود الله ، وظلما للنفس ، وموجبا لغضب الله وعقابه ٠ كما أن تقوى الله تؤدى فى الدنيا الى تيسير الحياة والرزق المتقى ، وفى الآخرة غفران ذنبه وزيادة أجره ٠

ــ من أجل تحقيق هذه المعاملة الكريمة تخاطب السورة وجدان المسلم وتستثير عقيدته وايمانه بالله واليوم الآخر :

« ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢) ٠

وهذا يدلنا على أمرين فى غاية الأهمية ٠

١ ــ أن تطبيق شريعة الله تطبيقا فعالا لا يتحقق الا فى مجتمع مؤمن ، قد ربى أفراده على أخلاق القرآن ٠

٢ ــ أن الدراسة المثلى للفقه لا تكون بدراسته منفصلا عن الجوانب الأخرى للاسلام ، بل على أنه مرتبط بها ، ولا سيما بالعقيدة والأخلاق ٠

ــ من المبادىء الخالدة التى قررتها السورة (وقررت فى سور أخرى) مبدأ معاملة كل انسان حسب طاقته :

« لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » (٧) ٠

ولهذا المبدأ تطبيقات نافعة لا تكاد تحصى ، ليس فى التشريع فحسب ، بل وكذلك فى التربية وفى العمل الاسلامى ٠ فمثلا اذا تعودت قيادة العمل الاسلامى أن تراعى الاختلافات الفردية فتطالب كل فرد بما يستطيع ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، وأن تشعره بتقديرها لكل انجاز مهما كان متواضعا (ما دام قد بذل وسعه) ــ لتحققت باذن الله نتائج جماعية تشبه المعجزات ٠

ـ وفى السورة تفسير للتاريخ فيه عبرة لكل مؤمن : أن من قوانين الله التى تحكم المجتمعات الانسانية أن أى مجتمع يتحدى أوامر الله ورسله للناس بالتزام العدل سيؤدى به قانون الأسباب والمسببات الى أن يواجه حتما العاقبة الوخيمة لظلمه ، **ولا سيما ظلمه للضعفاء وتلك العاقبة هى الانهيار والخسران :**

« وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » (٨ ـ ٩) .

ـ وتنتهى السورة بالتأكيد على قدرة الله وحكمته وعلمه ، وأن الأرض التى نعيش عليها ليست هى الأرض الوحيدة ، فهناك أرضون أخرى (١٢) .

وهذه الاشارة يرى العلم الحديث أنها تتفق مع مفهوم تعدد الكواكب التى تشبه أرضنا على الأقل فى بعض الجوانب . وأن هذا المفهوم وان لم يثبت بأدلة حسية قاطعة فهو معقول تماما (١) .

اذا أضفنا الى هذه السورة الآيات الأخرى فى القرآن من موضوع الأسرة والعلاقات الزوجية وتربية الأطفال ـ فسنجد أنفسنا أمام موضوع متكامل ، ويتضح لنا باذن الله منهج القرآن فى علاجه ، وتوجيهاته الربانية فى اقامة العلاقات البشرية ، وامكانيات التطبيق فى الحياة المعاصرة .

من مزايا هذا المنهج :

١ ـ ان استقلال العلوم الاسلامية بعضها عن بعض يفيد تطورها المتخصص ، ولكن التخصص الضيق يقضى على وحدة المعرفة الاسلامية وتكاملها ، ويؤدى الى ظهور أنواع من النقص فى الشخصية المسلمة منها : ضيق الأفق ؛ والعقلية الحرفية ؛ وغموض الرؤية الكاملة لشمول الاسلام، بل قد يؤدى الى تعصب كل متخصص لتخصصه بسبب جهله بالعلوم الأخرى .

ولسنا ندعو الى الغاء التخصص ، ولكننا ندعو فى تربية الشباب

---

(١) راجع موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة ص ١٦٥ ، ١٧٣ .

المسلم الى اقامة العلاقات الطبيعية بين العلوم الاسلامية وتقديمها اليه فى صورة تجمع بين مزايا التخصص والتكامل معا ·

ومنهج التدبر للقرآن يحقق هذه المزايا :

فيعلمنا أن ندرس الفقه مثلا فى نطاق العقيدة والعبادة والأخلاق والمجتمع أى كجزء من كل وهو الاسلام ·

ويعلمنا كذلك أن نعنى بالموضوع الواحد ، ونتتبعه فى القرآن كله ، ثم فى السنة ، ثم فى تراث ورثة الأنبياء · ثم البحث عن امكانيات تطبيقه فى حياة الفرد والجماعة ·

٢ ـ سيؤدى استخدام هذا المنهج الى مراجعة بعض العلوم الاسلامية والعربية وكتابتها من جديد بروح قرآنية ·

ومن هذه العلوم مثلا :

علم التوحيد :

وهو علم العقيدة الاسلامية ، فينبغى :

ـ أن نخلصه من آثار الفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ولا سيما من روح الجدل ومن استعمال المصطلحات غير القرآنية وغير الاسلامية (كمصطلحات الذات والجوهر والعرض) ·

ـ أن نخلصه من قضية الفصل المصطنع بين الوحى والعقل · فالوحى القرآنى يخاطب الانسان كوحدة متكاملة تشمل الفطرة والعقل والخيال والشعور والحواس ، كما تشمل فرديته واجتماعيته ، وجسده وروحه ، وظاهره وباطنه ، وحياته وموته ·

ـ أن ندرس العقيدة الخالصة كما وردت فى القرآن والسنة وكما عاشها المؤمنون ·

ـ أن ندرس العقيدة مع العبادات والأخلاق · فصفات المؤمنين فى القرآن تشمل هذه النواحى الثلاثة ·

التاريخ الاسلامى :

ينبغى أن يعاد فهمه ونعاد كتابته على ضوء المبادىء القرآنية فى تفسير التاريخ الانسانى بوجه عام ، وتاريخ الانبياء بوجه خاص ، وعوامل التغيير التى تؤدى الى ظهور خير أمة وانهيارها .

علم الاجتماع :

استمد أبو الريحان البيرونى وابن خلدون وغيرهما من علماء المسلمين الذين كتبوا فى هذا العلم كثيرا من أفكارهم من القرآن الكريم . ويبدو أن تطور هذا العلم قد توقف أو ضعف فى العالم الاسلامى المعاصر ولاحياء هذا العلم ينبغى الرجوع الى القرآن مرة أخرى .

الأدب العربى :

فى الأدب العربى كثير من نصوص الشعر والنثر تدور حول اللغو والفحش ، كشعر الغزل الفاحش ، والهجاء المقذع ، والمدح الكاذب ، والتكسب بالشعر ومقامات التصنع والاستجداء يجب أن نترك دراسة هذه الموضوعات ــ اذا لم يكن من ذلك بد ــ لقلة متخصصة تهتم بتطور الظواهر الادبية وعلاقاتها بالظواهر الاجتماعية والأخلاقية . وينبغى أن نركز على الأدب الاسلامى والشعر الاسلامى فى كل العصور ، ولا سيما فى العصر الحاضر . فهناك مثلا شعر اسلامى لشعراء الحركة الاسلامية الحديثة يجب أن يجمع ويدرس ويستفاد منه فى بناء الجيل المسلم .

٣ ــ وأخيرا لعل أهم ما يحققه هذا المنهج فى تدبر القرآن هو تربية الشخصية المسلمة تربية قرآنية متكاملة .

الايمــان

الايمان بالله الواحد :

الايمــان بالله وبصفاته وأسمائه الحسنى كمـا وردت فى القـرآن والسنة بلا تشبيه أو تعطيل أو تأويل ـ له آثار عميقة فى نفسية المؤمن ، ولا سيما عقيدة التوحيد ٠

فهذه العقيدة تجعل للمسلم هدفا رئيسيا واحدا طوال حياته ، وهو التحقق بالعبودية لله وحده ،فيوجه كل طاقاته ونشاطاته نحو ذلــك الهدف : فيكون ولاؤه لله ، وخوفه من الله ، ورجاؤه فى الله ، وكـل أخلاقه وأعماله ظاهرها وباطنها ، مقصودا بها وجه الله وحده ؛ وكـل جوانب حياته موجهة بهدى الله وحده :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ٠ لا شريك له (الانعام ٦/١٦٢ ـ ١٦٣) ٠

وهذه العقيدة تمكن المؤمن من مواجهة الحياة بروح العبادة ، وجهد العمل الصالح ، كما تمكنه من التغلب على مصاعبها ـ مهما تعقدت ـ بروح الأمل فى الله ، والاستعانة به ، والثقـة بعـدله وحـكمته ، والرضى بقضائه ٠ وبذلك تحقق له نوعا فريدا من سكينة النفس وسلامها الداخلى لا يتحقق للوثنى المشرك الذى يكفر بالوحدانية ، ويؤمن بتعدد الآلهة ٠

وعقيدة التعدد تتنافى مع وحدة الكون التى تتمثل فى ظواهـر متكاملة تخضع لقوانين ثابتة ٠ فعقيدة التعدد تفسر هذه الوحدة تفسيرا خاطئا يفرض أن تعدد المخلوقات يعنى تعدد الخالقين ، وهذا وهم باطل ، وظن كاذب ، لأن المخلوقات مهما تعددت وتنوعت فبينها علاقات متشابكة ؛ كما أنها تخضع لقوانين واحدة وسنن مطردة :

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » (الملك ٦٧/٣) ٠

وكذلك تتنافى عقيدة التعدد مع الشخصية الانسانية ؛ وتكامل نشاطاتها العقلية والروحية والبدنية ؛ وخضوعها لقوانين ثابتة تربطها بنظام الكون وتجعلها جزءا لا يتجزأ من عالم الغيب والشهادة ؛ فروح الانسان من عالم الغيب وجسمه من عالم المادة ؛ وهما متفاعلان في وحدة متكاملة وهي شخصية الانسان ٠

والآلهة المتعددة تكون محسوسة أو غير محسوسة ٠

(أ) فالآلهة المحسوسة تكون في شكل تماثيل وصور تمثل عبادة البشر أو الحيوانات أو مظاهر الطبيعة كما في الديانات الوثنية أو الديانات السماوية التي تأثرت بالوثنية كالنصرانية (١) ٠ فقد أصبحت هذه الديانة بعد تحريفها ديانة وثنية في معظم جوانبها :

فعقيدة التثليث عقيدة وثنية مأخوذة من الوثنيات القديمة التي كانت سائدة في أفريقيا وآسيا ولا سيما في مصر والهند ٠

والتماثيل والصور والصلبان والطقوس والاساطير والاحتفالات بعيد الميلاد (٢) ـ كل هذه مظاهر وثنية ترجع في أصولها الى الوثنيات القديمة ٠

وقد ادعى رجال الدين المسيحي لأنفسهم قبل الاسلام وفي القرون الوسطى من القداسة والعصمة وحق التشريع ما جعل نفوذهم يفوق نفوذ الكهنة والسدنة في معابد الوثنيات القديمة ٠ وكان أتباعهم يطيعونهم طاعة مطلقة كطاعة الأرباب ، وكان يشبههم في ذلك رجال الدين اليهودي ، ولذلك يقول الله تعالى عن اليهود والنصارى :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » (التوبة ٩/٣١) ٠

---

(١) عن تأثر النصرانية بالوثنية راجع احمد شلبي ٠ المسيحية ص ١٣ وأبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٣ ٠

(٢) عن الاصل الوثني لعيد الميلاد راجع The Plain Truth About Christmas وهو كتاب اصدرته كنيسة امريكية عالمية : The Worldwide Church of God واعترفت فيه بالأصل الوثني لعيد الميلاد ، وقد صدرت له عدة طبعات سنة ١٩٥٢ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ ٠

وعقيدة التوحيد تحرر المسلم من كل هذه الضلالات ، كما تحرره من سلطة الكهنة ورجال الدين ، حتى ولو كانت سلطة وساطة لا سلطة ربوبية ، لأن علاقة العبد بربه فى الاسلام علاقة مباشرة لا تحتاج الى الوسطاء :

« **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان** (البقرة ٢/١٨٦) .

ولا شك أن استبعاد سلطة الكهنه ورجال الدين فى الاسلام قد أزاح عبئا ثقيلا عن فكر المسلم وضميره وارادته ، وجعل توجيهه الوحيد يأتى من مصدر ربانى مباشر يبين ولا يكره ؛ ويهدى ولا يرغم ؛ ويكتفى غالبا بالكليات الخالدة والمبادىء العامة ؛ ويترك للمسلم حرية فكرية ووجدانية واسعة لحل مشاكله المتغيرة ؛ ويشجعه على التفكير والنظر فى الكون ؛ والتدبر لآيات القرآن .

(ب) وقد تكون هذه الآلهة غير محسوسة ، كما هو الحال فى الوثنية المعاصرة . فقد أصبح كثير من الناس (وكثير من المسلمين) يتخذون غير الله أو مع الله آلهة أخرى ، وأهمها المال والسلطة والشهرة والقومية والوطن و « ترابه المقدس » ! وعلى رأس هذه الآلهة جميعا اله الهوى .

واتباع الهوى يمثل استعباد الانسان المعاصر لشهواته ، ومحاولته اشباعها بكل الوسائل ، ومن أجل ذلك يتعبد للآلهة الأخرى ، ولا سيما المال والسلطة والشهرة (اللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى) ولمن بأيديهم الأشياء ، فيضحى بالكثير من وقته وجهده فى سبيل ارضائهم ، بل كثيرا ما يضحى كذلك بضميره وشرفه وكرامته . **ولا عجب فالهوى يعمى** ويصم :

« **أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله** » (**الجاثية ٤٥/٢٣**) .

وبينما تسمو عقيدة التوحيد بالانسان ، وتربأ به أن يتخذ الها غير خالقه ورازقه وهاديه ومن بيده حياته وموته ومصيره ــ تهبط به عقيدة التعدد الى مستوى العبودية ، ليس لمثله فحسب ، بل لأقل منه ، كالحيوانات والجمادات ، فيعبدها وهو الذى كرمه الله بالانسانية :

« **ولقد كرمنا بنى آدم** » (**الاسراء ١٧/٧٠**) .

ويسجد لها وهو الذى أمر الله الملائكة أن تسجد له . فأى ضعة وأى هوان ! وهـذا النوع من العبودية لغير الله (أى الاوثـان حسـية أو معنوية) يقتل المواهب المبدعة والطاقات البناءة فى الانسان ، لأنه يصبح كالعبد المملوك .

وقد صرح القرآن بأن العبد المملوك عاجز عن الاسهام الحقيقى ـ ماديا كان أم معنويا ـ فى بناء الأمة المسلمة .

فقد عقد القرآن مقارنة بين شخصين : أحدهما عبد عاجز فقير ، لا يؤدى دورا نافعا فى خدمة المجتمع عن طريق العمل والكسب والانفاق . والآخر حر قادر ، يعمل ويكسب وينفق ، ولا سيما فى وجوه البر .

كما عقد مقارنة أخرى بين شخصين : أحـدهما عبد أو كالعبد : ابكم عالة على سيده ، عاجز لا يستطيع أن يقوم بأى عمل نافع . والآخر رجل (حر) يستخدم مواهبه وطاقاته فى تبصـير الناس بالهـدى ، ويأمرهم ـ بوجه خاص ـ بالتزام العدل .

وهو الى ذلك يحيا حياة مستقيمة موجهة بهدى الله :

« **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما ابكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يات بخير . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** » (**النحل ١٦/٧٥ ـ ٧٦**) .

ومن المقارنة نفهم بوضوح لماذا شرع الاسلام وسائل كثيرة لتحرير الرقيق (١) لأن الرق فى حقيقته صـورة من صور العبودية لغير الله ، ومن ثم فهو يتنافي مع عقيدة التوحيد ، كما أنه يمثل عقبة كأداء تواجه الشخصية الانسانية ، وتحول دون رقيها عن طريق اهتدائها الكامل بهدى الله . وقد صرح القرآن بأن الرق كالفقر « عقبة » يجب على المسلم لا أن يتخطاها فحسب بل وأن « يقتحمها » :

---

(١) عن الاسلام والرق راجع محمد قطب : **شبهات حول الاسلام** ص ٣٧ ـ ٦٣ .

« **فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة** » (البلد ٩٠/١١ - ١٣) ٠

والأعمال الصالحة العظيمة التى يتطلب الاسلام من المسلم القيام بها - كالانفاق والجهاد والدعوة الى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - تنطلب من عزة النفس وكبر الهمة مالا يوجد عند العبد الا اذا تحرر من عبوديته ٠ وكيف يستطيع أن يحرر غيره من عبادة العباد وهو عبد لهم ؟!

والعبد المملوك نفسيا وعقليا للآخرين أو لهواه هو كالعبد الرقيق « لا يقدر على شيء » ٠ فلا يستطيع أن يفكر تفكيرا بناءا ، ولا أن ينجز انجازا كبيرا ، لأنه ليس حرا ، لا من قيود الآخرين ولا من قيود نفسه ، فشخصيته فى الحقيقة مستعبدة من داخلها وخارجها ٠

وعقيدة التوحيد تحرر المسلم من الرق الداخلى والخارجى ، وتجعل عبوديته لله وحده ٠ وهذه العبودية لله تسمو بشخصية الانسان ، توثق صلته بربه فيهتدى بهداه ، ويعتز بعزته ، ومن ثم تتحرر كل طاقاته وقدراته وتنطلق للتفكير المثمر ، والعمل الصالح ، والنشاط البناء ، بدون عائق من أوثان أو كهان ٠ وبذلك يؤدى دوره كاملا كخليفة لله فى أرضه ٠

ومع أن عقيدة التوحيد تحرر كل طاقات الانسان وتطلقها للعمل - فهى لا تذهب به الى حد الغرور ، بل توقفه عند حده ، وتعرفه قدر نفسه ٠ فلا يتجاوز دور الانسان المخلوق الفانى المحدود المعرفة والارادة والحياة - الى دور الاله الخالق الرازق الباقى العالم لكل شيء والقادر على كل شيء ٠ فالمسلم يؤمن بأن الله واحد فى ذاته ، وفى أفعاله ، وفى كماله :

« **ليس كمثله شيء** » (الشورى ٤٢/١١) ٠

ومن ثم يشعر دائما بحاجته الى ربه ، وغنى ربه عنه وعن الناس جميعا ٠ ولذلك يستعين دائما بالله ، ويستهديه ، ليظل دائما على الصراط المستقيم ٠

أما غرور الانسان الكافر ، ولا سيما المشرك ، فيخيل اليه أنه ليس بحاجة الى الله ، ولذلك لا يستعينه ولا يستهديه ٠

وهذا الغرور يكون احدى السمات البارزة فى « الحضارة » الغربية الحديثة ، وهو نتيجة لعوامل كثيرة من أهمها :

١ ــ الانجازات العلمية والتكنولوجية لهذه الحضارة ٠

٢ ــ الانجاه العلمانى السائد فى كل نواحيها : وهو انجاه يفصل بين الدين والحياة بوجه عام ، وبين الدين والتربية بوجه خاص ، وينظر بعين الريبة الى كل ما هو « دينى » ويرى أنه لتحقيق التقدم الانسانى يجب على الانسان أن يعتمد على عقله وجهده وخبرته وحدها ، لا على الوحى ولا على الدين ٠ ومن المعروف أن هذا الاتجاه يعود فى نشأته الى ظروف الصراع بين الكنيسة والعلم فى القرون الوسطى ، وان التقدم العلمى فى الغرب ــ بسبب هذا الصراع ــ قد سلك طريقه بمعزل عن الايمان بوجود الله فضلا عن توحيده ٠

٣ ــ تعدد الآلهة فى هذه « الحضارة » : فهى فى كثير من جوانبها « حضارة » مادية وثنية مشتركة ، فهى مزيج من سلالة الوثنيات اليونانية والرومانية والنصرانية ٠ والفرق أن الآلهة المعاصرة قد اتخذت أسماء جديدة : اله الاقتصاد ، واله العلم والتكنولوجيا ، واله القومية ، واله الشهوات الجنسية ٠

ويتوهم الانسان الغربى أنه ما دام كشف بعض اسرار العلم ، وقهر بعض مظاهر الطبيعة ، واستعمر بعض الشعوب الضعيفة واستغل ثرواتها ــ فلا بد أن يكون قد بلغ من القوة والتفوق درجة تؤهله أن يكون سيد نفسه ، ورب مصيره ، والمتحكم فى مجرى حياته (بالتعاون مع أبناء جنسه غالبا على الاثم والعدوان) بدون حاجة الى الايمان بالله ، أو الاستعانة بقدرته وهداه ٠

وهو ينسب تقدمه المادى ــ بوجه خاص ــ الى علمه وعبقريته كما نسب قارون ماله فقال :

« انما أوتيته على علم عندى » (القصص ٢٨/٧٨) ٠

وهذا الغرور نوع من الشرك ، لأنه نوع من عبادة البشر ، اذ هو تأليه الانسان لنفسه ، واتخاذه الهه هواه ٠

وقد بدأ بعض المفكرين الغربيين أنفسهم (١) ، ولا سيما الذين أسلموا منهم (٢) يدركون مدى ما في هذا التفكير المغرور من خطر ، ومدى ما يؤدى اليه من خطر على التقدم الانسانى حتى فى الغرب نفسه ، لأنه يقطع كل صلة للانسان بالله ويقتل اسمى ما فى الانسان وهو روحه التى هى من الله ، ويحصر تقدمه فى التقدم المادى الذى يمسخ انسانيته ، ويهبط به الى درك الحيوان أو الآلة .

وقد أدى هذا « التقدم » المادى بالفعل الى تخلف روحى وأخلاقى واضح ولا سيما فى الغرب نفسه . ويتمثل هـــذا التخلف في طغيان الاهتمام بالاقتصاد والطعـام والجنس ، وفى ظواهر التوتر الاجتمـاعى والنفسى : كانتشار الجريمة والبطالة والاضرابات والمخـدرات وأمراض النفس والعقل . كما يتمثل فى أن الاستعمار الغربى ما زال ماضيا فى الاسترقاق الجماعى للشعوب ، واستغلال ثرواتها المادية والبشرية ويتبع فى القرن العشرين أساليب جديدة لكنها لا تقل وحشية — ان لم تزد — عن أساليب القرن التاسع عشر .

والحضارة الغربية باصرارها على سلوك هـذا الطريق « للتقدم » لا شك أنها سائرة الى الهلاك . ولا نجاة لها الا بالرجوع الى الله واعتناق الاسلام .

ومما سبق يتضح أن عقيدة التوحيد تقيم التوازن فى الشخصـيـة المسلمة وهذا التوازن يقيها الغرور والانحطاط معا ، ويصلها بخالقها ، ويهديها — بهذه الصلة — الى أن تحيا الحياة الطيبة التى تقوم على الايمان والعمل الصالح :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة »
(النحل ١٦/٩٧)

---

(١) منهم العالم الكسيس كاربل فى كتابه **الانسان ذلك المجهول** والفيلسوف ديورانت فى كتابه . **مناهج الفلسفة** والمؤرخ توينبى فى كتابه . **دراسة التاريخ** ، والأديب هكسلى فى كتابه **الفلسفة الخالدة** .

(٢) راجع مثلا . مريم جميلة : **الحضارة الغربية تدين نفسها** فى جزءين :
Western Civilization Condemned By Itself, 2 Vols.
ومحمد أسد . **الاسلام على مفترق الطرق** .Islam At The Cross Roads ورجاء جارودى : **الاسلام وأزمة الغرب** محاضرة بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٨٣/١/٥ .

وتمتد هذه الحياة الطيبة على طريق ذى مراحل متكاملة تمتد من دار الابتداء الى دار الجزاء :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا » (الكهف ١٨/١١٠) ٠

الأيمان بالغيب :

الغيب هو كل ما غيب عن حس الانسان علمه : كذات الله ، وماهية الروح ، وموعد الساعة ، وطبيعة الملائكة والجن ، وأحـــوال القيامـة والحساب والجزاء وما يحدث فى المستقبل ٠

والايمان بالغيب يكون عنصرا أساسيا فى شخصية المسلم، ويميزها عن شخصية الكافر ٠ فالكافر لا يؤمن بالغيب ، أى ينكـر وجـــوده ، فلا يؤمن الا بما يقع تحت الحس ، أو ما يدركه العقل عن طريق الملاحظة (والتجربة) لما يقع تحت الحس ٠

وللايمان بالغيب نتائج تنعكس على فكر المسلم ووجدانه وأخلاقه ٠

فالموقف الفكرى للمسلم من عالم الغيب هو موقف يتسم بالامانة الفكرية ؛ فهو يسلم من أول الأمر (لأنه مؤمن بدين الفطرة) بحقيقة بدأ العلم الحديث يسلم لها ؛ وهى قصور العقل الانسانى عن ادراك أقــرب الأشياء اليه وهو الانسان نفسه ! فالانسان يجهل الكثير عن نفسه ؛ كما يجهل الكثير عن الكون الذى يعيش فيه ٠

ويكفى أن نشير الى أن عالما كبيرا فى الغرب هو د٠ الكسيس كاريل فى كتابه المشهور : الانسان ذلك المجهول (١) ، قد اعترف اعترافـا مفصلا وأمينا بعجز العلماء عن فهم الانسان فقال :

اننـا لا نفهم الانسان ككل ، اننـا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة ٠ وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا ٠ فكل واحد منا مكون من مركب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ٠ فأغلب الاسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة ٠ ويورد المؤلف أســئلة هامة كثيرة لا يجد

(١) الترجمة العربية لشفيق اسعد فريد ص ١٦ ـ ١٨ ٠

العلماء لها جوابا . وينتهى الى القول بأن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ما زال غير كاف ، وان معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية فى الغالب .

وهذا مصداق قوله تعالى عن الروح :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء ١٧/٨٥) .

والايمان بالغيب مرتبط كذلك ارتباطا وثيقا بوجدان المسلم .

فهو يؤمن بأنه لا يعيش هذه الحياة ــ سراءها وضراءها ــ وحده ، وانما يعيشها قريب الصلة بالله :

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (ق ٥٠/١٦) .

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » (البقرة ٢/١٨٦) .

« ان رحمة الله قريب من المحسنين » (الأعراف ٧/٥٦) .

« ان ربى قريب مجيب » (هود ١١/٦١) .

وكذلك يعيشها فى صحبة ملائكة كرام بررة ، يشجعونه على عمل الخير ، ويستغفرون له اذا عمل شرا ، ويثبتونه فى الجهاد ، ويواسونه فى الضراء ، ويشيعون فى حياته السلام وفى نفسه السكينة ، وعندما يحين أجله يعينونه كذلك على أن يستقبل الموت فى سلام وسكينة :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور » (الأحزاب ٣٣/٤٣) .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » (غافر ٤٠/٧) .

« اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » (الأنفال ٨/١٢) .

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا » (فصلت ٤١/٣٠) .

« الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » (النحل ١٦/٣٢) ·

ولا شك أن الايمان بهذه الصحبة الكريمة فى الحيـاة والموت من شأنه أن ينبت قلب المؤمن ، ويزيل عنه الوحشة والقلق ، ويشيع فيه الطمأنينة والرضى ·

وكل هذه المشاعر حقيقية لا يتمتع بها الكافر ، لأن تصوره للحياة والموت ليس فيه هذا العنصر الغيبى الروحانى ، ومن ثم لا يسمح له الا أن يعيش فى عالم ضيق محدود ، محصور فى وجوده هو ووجود العـالم الخارجى حوله · وكلا الوجودين مادى ، متغير ، مهتز · فاذا أقام الانسان كل كيانه النفسى والعقلى على هذا الوجود المادى المهتز فقد اقامه على شفا جرف هار ·

ولعل هذا الضيق فى التصور والوجود ، وحصرهما فى النطاق المادى المحدود ، هو بعض مظاهر « المعيشة الضنك » التى يعيشها الضـال الكافر بهدى الله كما أنه بعض مظاهر « العمى الروحى » الذى يتخبط فيه فى الدنيا كما قال تعالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (طه ٢٠/١٢٤) ·

« فانها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التى فى الصـدور » (الحج ٢٢/٤٦) ·

وكما أن الايمان بالملائكة يجعل العـالم الذى يعيش فيه المؤمن عالما رحبا من حيث « الوسط » الذى يتحرك فيه ــ فالايمان بالآخرة يجعل عالمه رحبا من حيث « الزمن » ·

فحياة المؤمن ليست هى اليوم فقط ، وانما تمتد الى غد (أى لا تنتهى بنهاية هذه الحياة وانما تمتد الى حياة أخرى) · وعلى كل نفس مؤمنة أن تملأ حياتها بالأعمال الصالحة وبهذه الأعمال تمهد لمستقبلها فى عالم آخر اكمل وأسعد ، أى تقدم لغدها :

« ولتنظر نفس ما قدمت لغد » (الحشر ٥٩/١٨) ·

فالموت بالنسبة للمؤمن ليس هو النهاية ــ كما يتصور الكافر ــ وانما هو بدء رحلة نحو حياة أفضل وابقى ·

والايمان بالغيب يمثل كذلك ذروة الشعور الاسلامى بالمسئولية الخلقية · فالمسلم يفعل الخير ويجتنب الشر لدوافع ترجع الى تربيته على الهدى ، ومن أهم هذه الدوافع دافعان يرجعان الى ايمانه بالغيب ، وهما :

١ ـ تقوى الله :

فمن أهم صفات المتقين أنهم يخشون الله بالغيب :

« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب » (الأنبياء ٢١/٤٨ـ٤٩) ·

« هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » (ق ٥٠/٣٢ ـ ٣٣) ·

٢ ـ الايمان بالعواقب :

المسلم يؤمن بأن هناك عواقب حتمية لكل أعمال الانسان ، مهما صغرت :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (الزلزلة ٩٩/٧ـ٨) ·

وكثير من هذه العواقب يكون بعيد الوقوع ، أو مغيبا عن علم الانسان فى الدنيا والآخرة ·

ومع ذلك فهو يفعل الخير ويجتنب الشر ايمانا منه بحتمية عواقبهما مهما كانت بعيدة أو مغيبة ·

فهو مثلا يفعل الخير ، وان لم ير له نتائج قريبة أو نافعة نفعا عاجلا لشخصه · بل كثيرا ما يفعل الخير وهو يعلم أنه لن يجر عليه الا الأضرار والمحن فى العاجلة ، وذلك كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ·

وكذلك هو يتجنب الشر ، كالظلم مثلا ، لأنه يؤمن بأن له عواقب حتمية وخيمة ـ مهما كانت بعيدة أو مغيبة ـ ليس على المظلوم وحده بل وعليه هو وعلى المجتمع كله ·

وعلى العكس من ذلك يكون سلوك الكافر ·

فالكافر لا يفعل الخير الا اذا جر عليه نفعا عاجلا فى هذه الدنيا . ولا يتجنب الشر الا اذا جلب عليه ضررا محققا فى هذه الدنيا . فمثلا الحاكم ذو العقلية الكافرة (وقد يكون مسلم الاسم والمظهر كمعظم حكامنا اليوم) يمعن فى ارتكاب الظلم طوال مدة حكمه . ولا يرتدع عنه الا اذا رأى ثورة المظلومين تهدد كرسيه بالسقوط وحياته بالزوال . بل غالبا ما لا يتعظ بالتهديد حتى يدركه الغرق فيقول آمنت !

وبسبب هذين الدافعين يتحرر ضمير المسلم وسلوكه من ضغط الواقع المادى ولا سيما من ضغط الرغبة والرهبة من الناس .

فهو يؤدى عمله على خير وجه ، ولا يحتاج فى ذلك الى رقيب أو حسيب ، لأنه يحسن عمله ابتغاء مرضاة الله ، ورجاء فى عواقب الاحسان فى الدنيا والآخرة :

« **هل جزاء الاحسان الا الاحسان** » (**الرحمن ٥٥/٦٠**) .

أما الذى لا يخشى الله بالغيب ، ولا يهتم بالعواقب المغيبة ، فلا يحمله على احسان عمله الا الرغبة أو الرهبة من الناس ، ولا سيما ممن بأيديهم السلطة أو المال . وذلك شأن الكافرين بوجه عام ، والمنافق بوجه خاص .

ولعله لهذا السبب وصف الله النساء المؤمنات بأنهن لا يحتجن الى تأديب أزواجهن :

« **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** » (**النساء ٤/٣٤**) .

فالمؤمنة الصالحة القانتة تحفظ غيب زوجها ، وتصون عرضها وطهارتها فى كل وقت وليس فقط أثناء « الحضور » المادى لشخص زوجها .

أما التى تحتاج الى التأديب فهى التى لم يتعمق فى نفسها هذا النوع من التربية ، وهى التى يخشى نشوزها .

وبالاجمال فهناك قيم اسلامية نبيلة يلتزم بها المسلم اينما كان وحيثما حل ، حضر الناس أو غابوا ، لأنه يؤدى أعماله ـ منفردا أو مجتمعا ـ بروح الاحسان . والاحسان كما قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » (من حديث رواه مسلم) ٠

« المؤمنون عقليتهم غيبية » :

هكذا يصفهم الماديون والعلمانيون والملاحدة ٠ ولا يقصدون بهذا الوصف الا التندر والسخرية :

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا » (البقرة ٢/٢١٢) ٠

والذى لا يدركه الماديون هو أن الايمان بعالم الغيب فى الاسلام ليس تصورا غامضا لعالم مجهول ، ولا تهويما فى عالم الخيال ، ولا مخدرا لضمير الانسان ، وانما هو فى الحقيقة ــ كما رأينا ــ ادراك عميق لحكمة الله فى وجود الكون والانسان ، كما أنه التزام كامل بهدى الله فى الفكر والوجدان والسلوك ٠

العمل

الايمان أخلاق وأعمال

الايمان يثمر فى المؤمن أخلاقا حسنة وأعمالا صالحة ٠

وادعاء الايمان بلا أخلاق ولا أعمال هو نفاق محض ٠ والنفاق كفر ٠

فالانسان الذى يدعى الاسلام بلسانه ، ولا يتخلق بأخلاق القرآن ، ولا يعمل أعمال الاسلام ، هو منافق ، والمنافق كافر ٠

والمنافق يعامل فى الدنيا ــ بحسب ظاهره ــ معاملة المسلم ، **ولكنه فى الآخرة يعاقب عقاب الكافر :**

« ان الله جامع المنافقين والكافـرين فى جهنم جميعـا » (النساء ١٤٠/٤) ٠

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » (البقرة ٨/٢) ٠

والخلق الحسن صفة نفسية ثابتة ، يكتسبها المسلم بالتربية على هدى الله ، ويترتب عليها سلوك ارادى فاضل ، أى عمل صالح أو أعمال صالحة ٠

فللخلق الحسن فى الاسلام خصائص من أهمها :

١ ــ أنه يستمد من هدى الله أى من القرآن والسنة ٠

٢ ــ أنه يستقر فى الشعور والوجدان (أى فى القلب) ٠

٣ ــ انه مقبول لدى العقل وملائم للفطرة ٠

٤ ــ أنه مستمر : بمعنى أن يزاوله الانسان المسلم طوال أو معظم حياته الراشدة ٠ فيشترط ليوصف المسلم به أن يكون حسن الخلق

لا يوما أو شهرا أو فترة قليلة أو فترات متقطعة من حياته ، بل يستقيم عليه طوال حياته أو معظمها .

٥ ــ أنه يثمر أعمالا ايجابية صالحة تظهر في سلوك المسلم ونشاطه اليومى .

٦ ــ يكون هذا السلوك اراديا ، أى اختياريا بدون اضطرار ولا اكراه .

٧ ــ هناك تفاعل أو تأثير متبادل بين الخلق والعمل : فالخلق الحسن يثمر العمل الصالح ويزيده صلاحا ، والعمل الصالح يزيد الخلق الحسن حسنا وثباتا .

والأخلاق القرآنية المترتبة على الايمان كثيرة ، ويجمعها خلق التقوى .

فالتقوى أم الأخلاق ، لأنها تجمع معظم الأخلاق الاسلامية (١) . وهى أول وأهم ما يترتب على الايمان .

ومن ثم سنقتصر على بيان صفات المؤمنين المتقين فى القرآن . ومجموع هذه الصفات ــ بالاضافة الى العلم ــ هو ما يكون شخصية المؤمن المتقى أى شخصية المهتدى بالله ، وهو المسلم الحق .

المؤمنون المتقون

بعد أن بينا الايمان ، يكفى لبيان أهمية التقوى أن الله جعلها جزءا لا يتجزأ من رسالة الرسل الى كل أمة :

« **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله** » . **(النساء ١٣١/٤)** .

بل جعلها هدفا من أهداف خلق الانسان :

« **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** » **(البقرة ٢١/٢)** .

وجعلها كذلك مقياس التفاضل بين الناس :

---

(١) عن التقوى راجع بتوسع سعيد حوى : جند الله ثقافة واخلاقا ص ٢٥٦ .

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات ١٣/٤٩) .

ووصفها بأنها خير زاد وخير لباس للانسان :

« وتزودوا فان خير الزاد التقوى » (البقرة ١٩٧/٢) .

« ولباس التقوى ذلك خير » (الأعراف ٢٦/٧) .

ولا يتقبل الله عملا الا بها :

« انما يتقبل الله من المتقين » (المائدة ٢٧/٥) .

وكل بناء أقيم على غير التقوى فهو منهار :

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم » (التوبة ١٠٩/٩) .

والرزق الحسن والفرج بعد الشدة مرتبطان بها :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (الطلاق ٢/٦٥ ـ ٣) .

وبها يكون نصر الله وتأييده :

« واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (البقرة ١٩٤/٢) .

« ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (النحل ١٢٨/١٦)

« والعاقبة للمتقين » (الأعراف ١٢٨/٧) .

وبها يتحقق حب الله للعبد :

« فان الله يحب المتقين » (آل عمران ٧٦/٣) .

والآن نورد الآيات التى وردت فيها أهم صفات المؤمنين المتقين وهى آيات كثيرة ، نكتفى منها بالآيات الكريمة التالية :

١ ـ « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك

وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون • أولئك على هــدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (البقرة ٢/٢ ـ ٥) •

٢ ـ « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (البقرة ٢/١٧٧) •

٣ ـ « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين • والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون • أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » (آل عمران ٣/١٣٣-١٣٦) •

٤ ـ « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا • اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (المائدة ٥/٨) •

٥ ـ « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (التوبة ٩/٧١) •

٦ ـ « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم • انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » (المائدة ٥/٥٤ ـ ٥٦) •

٧ ـ « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا

وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الأنعام ٦/١٥١ ـ ١٥٣) .

٨ ـ اقرأ أيضا سورة المعارج ٧٠ الآيات ١٩ ـ ٣٥ .

من هذه الآيات نرى بوضوح أن المهتدى بهدى الله أى المسلم الحق ينبغى أن ينحلى بصفات أساسية تنبع من الايمان والتقوى ، وتنعكس فى سلوك ايجابى يشمل العبادات والأعمال الصالحة وأداء الأمانات وتجنب المحرمات .

وفيما يلى نعرض لهذه الجوانب الأساسية الثلاثة للسلوك الاسلامى وهى : العبادات ، وأداء الأمانات ، وتجنب المحرمات .

العبادات

ان مفهوم العبادة فى الاسلام يعنى كل عمل صالح يؤديه المسلم ابتغاء مرضاة الله ٠

وهو بهذا يشمل العبادات الخمسة المعروفة وهى الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ٠

كما يشمل كل نشاط انسانى آخر يقوم به المسلم لوجه الله تعالى ، ويترتب عليه تحقيق خير ما للفرد أو للجماعة ٠

ومن الواضح أن العمل الصالح الذى يحقق خيرا للجماعة أفضل من العمل الذى يقتصر على تحقيق خير الفرد ٠ ومن هنا كان ثواب العمل الأول أعظم ٠ وكلما ازداد عدد الجماعة ازداد ثواب العمل ٠

ان جميع العبادات الأساسية فى الاسلام هى أعمال صالحة ، ويترتب عليها كذلك أعمال صالحة :

فالصلاة :

نشاط انسانى يومى يصل المسلم بخالقه ، ويجدد هذه الصلة خمس مرات كل أربع وعشرين ساعة ٠

ويرتبط هذا النشاط بتكوين عادات حسنة عند المسلم منذ طفولته: ومنها التعود على النظافة ، وطهارة الثوب والمكان والبدن ، وتربية المسئولية نحو الجماعة ٠

والصلاة كذلك نشاط نفسى وجسمى متكامل ، ومتكرر ، ومن ثم فهى تسهم فى حفظ طاقات المسلم (ولا سيما فى وقت الشباب) أن تتبدد فى نشاطات ضارة ، كالانشغال بلذات الجنس دون التقيد بالزواج ومسئولياته ، أو الانسياق وراء ما يجره الفراغ الروحى من ضياع الانسان فى سباق لاهث لتحقيق أهداف خاطئة ، كأن يصبح متاع الدنيا

وجمع المال أكبر همه . أو أن يقضى الانسان حياته بلا هدف محدد يربط مصيره بالله ولقائه فى الحياة الآخرة .

والصلاة اذا أداها المسلم بروح الاخلاص والخشوع لله ـ فلا بد أن تنعكس في سلوك حسن ، ومعاملة طيبة للناس جميعا ، وللمسلمين بوجه خاص ، ولا سيما للضعفاء منهم والمساكين ، كما قال الله تعالى فى حديث قدسى :

« انما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل بها على خلقى ، ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة والمصاب » (البزار) .

ان للصلاة فى الاسلام منطقها الجميل الذى لا يتخلف ، وهو أن لها مفعولا روحانيا عميقا يسرى فى كل تصرفات المسلم ، وبمقتضاه ينأى عن كل قبيح وكل شائن من الأقوال والأفعال .

فلا يمكن للمسلم أن يصلى ويكذب ، أو يصلى ويخون الأمانات . أو يصلى ويغش الناس ، أو يصلى ويزنى أو يسكر ... اذا لم يستح المسلم من ربه فصلى له ثم جرؤ على عصيانه ، واستحل حرماته ، فلا يمكن أن تكون صلاته صلاة مؤمن صادق ، بل صلاة منافق يرائي بها الناس ، لأن الصلاة قد وصفها الله تعالى فقال :

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (العنكبوت ٢٩/٤٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء المنكر فلا صلاة له » .

ولهذه الأهمية العظمى للصلاة في الاسلام عدت اقامتها من خصائص المسلم ، وتركها عمدا من خصائص الكافر ، **كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :**

« بين الرجل (أى المؤمن) وبين الكفر ترك الصلاة » (مسلم) .

والانفـــاق :

تكرر وصف المؤمنين بالانفاق كما تكرر الأمر به والحث عليه فى آيات كثيرة تزيد على الأربعين آية ، منها قوله تعالى :

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » (ابراهيم ١٤/٣١) ·

والأمر فى هذه الآية بالصلاة والانفاق يقتضى أن كليهما فريضة ·

وقال تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضـــة ولا ينفقونها فى ســـبيل الله فبشرهم بعذاب أليم · يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم · هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (التوبة ٩/٣٤ ـ ٣٥) ·

فكنز المال وعدم انفاقه فى سبيل الله هو سلوك الكافر الذى يؤدى به الى جهنم حيث يعاقب بهذه الصورة التى ينقلب فيها ماله فيصبح أداة عقاب له ·

أما المؤمن فينفق من ماله وهو يعلم أنه ليس مالكه الحقيقى ، وانما هو مستخلف فيه من الله :

« آمنوا بالله ورســـوله وأنفقوا مما جعلكم مســـتخلفين فيه » (الحديد ٥٧/٧) ·

وحين ينفق المؤمنون من أموالهم فانهم لا يكونون بهـذا الانفــاق متفضـــلين على الفقــراء ، وانمـا يكونون قد قاموا بأداء حقوقهم · **ولذلك وصف الله المؤمنين فى القرآن فقال تعالى :**

« والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (المعارج ٧٠/٢٤ ـ ٢٥ » ·

ومن فضل الله وكرمه أن يجزى المنفقين بعد ذلك خير الجزاء فى الدنيا والآخرة :

«وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين» (سبأ ٣٤/٣٩) ٠

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ٢/٢٧٤) ٠

والمؤمن التقى لا يلهيه المال ولا الولد عن الانفاق ، فيسارع به قبل أن تنصرم الحياة ويفوت الأوان :

« وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون » (المنافقون ٦٣/١٠-١١) ٠

والانفاق غير الزكاة بدليل ذكرهما معا في آية البر (البقرة ٢/١٧٧)، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ان فى المال لحقا سوى الزكاة ٠ ثم تلا « ليس البر أن تولوا وجوهكم ٠٠ » الآية ٠٠ (رواه الترمذى) ٠

والانفاق يعنى بالدرجة الأولى الانفاق من المال ، ولكنه يشمل ما هو أعم من المال ومن النعم التى أنعم الله بها على الانسان ٠ والتعبير القرآنى « مما رزقناهم ينفقون » تعبير عام يشمل مختلف النعم التى رزقنا الله بها : فالغنى ينفق على المحتاجين ، والعالم يعلم الجهلاء والطبيب يعالج المرضى ٠٠ فكل ينفق مما عنده على من يحتاجه ٠

وتكرار الانفاق من صفات المؤمنين المتقين يؤكد بصورة لا تقبل الشك أنه يأتى فى الاسلام على رأس العبادات والأعمال الصالحة التى لا يمكن بدونها أن تقوم للمجتمع الاسلامى قائمة ٠ والحقيقة فى الاسلام هى أنه لا تقوى بل ولا ايمان بدون انفاق ٠ وليتكلم أغنياء المسلمين وأذنابهم من « العلماء » ما شاءوا عن صلاتهم وصيامهم وحجهم ، فكل ذلك لا قيمة له بدون الانفاق على حاجات المسلمين **حتى تسد هذه الحاجات جميعا** ٠ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا أو عروا الا بما يصنع أغنياؤهم » (رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير) ٠

والغريب أن بعض العلماء يرون بأعينهم ما تعانيه جماهير المسلمين من ذلة وبؤس ، وكيف طحنها الفقر وهدها المرض ، وأضلها الجهل بدين الله عن الفلاح فى دنياها وأخراها — ومع ذلك لا يخجلون من

الحديث عن موضوعات مثل : « الاسلام دين العدل والرحمة » « الاسلام دين العلم والعمل » « المجتمع الاسلامى مجتمع التكافل » ... الخ .

وجوه الانفاق :

وقد أوضحت آية البر وغيرها وجوه الانفاق وهى :

١ ـ ذوو القربى : أى أن يصل المسلم رحمه بوجه عام ويبر والديه بوجه خاص .

٢ ـ اليتامى .

٣ ـ الفقراء والمساكين .

٤ ـ ابن السبيل (المسافر المنقطع والضعيف) .

٥ ـ الرقيق .

٦ ـ الجار .

وقد أمر الله المسلم لا بمجرد الانفاق على هؤلاء بل كذلك بالاحسان اليهم ، فقال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (النساء ٣٦/٤) .

فقد ذكرت هذه الآية الوالدين صراحة وجعلت الاحسان اليهما موازيا لعبادة الله كما قال تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » (الاسراء ٢٣/١٧) .

كما ذكرت الجار ذا القربى وهو القريب نسبا أو دارا ، والجار الجنب هو البعيد نسبا أو دارا ، والصاحب بالجنب وهو الزميل فى العمل أو الدراسة أو المرافق فى السفر ، فهو نوع جوار . وفى الاسلام

للجار الكافر حق الجوار ، والمسلم حق الجوار والاسلام ، وللمسلم القريب حق الجوار والاسلام والقرابة ·

شروط الانفاق :

١ ــ أن يكون ابتغاء وجه الله : لقوله تعالى :

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل » (البقرة ٢/٢٦٥) ·

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله » (البقرة ٢/٢٧٢) ·

٢ ــ **ألا يشوبه رياء :** وهذا الشرط مترتب على الأول ، ولأن الرياء من صفات الكافرين والمنافقين لقوله تعالى :

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا · والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » (النساء ٤/٣٧ ــ ٣٨) ·

٣ ــ ألا يشوبه من ولا أذى ، لقوله تعالى :

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ٢/٢٦٢) ·

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » (٢/٢٦٣) ·

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢/٢٦٤) ·

وهذه الآيات تؤكد أن للفقير كرامة يجب أن تراعى ، وأن المنفق ليس متفضلا عليه ، وانما هو يؤدى حقه اليه ·

٤ ـ أن يكون من كسب حلال طيب ، لقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » (٢٦٧/٢) ٠

ولقوله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله طيب لا يقبل الا طيبا » (مسلم) ٠

٥ ـ أن يكون باعتدال ، أى بين الاسراف والتقتير ، كما قال تعالى فى وصف المؤمنين :

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (الفرقان ٦٧/٢٥) ٠

والزكاة :

هى الحد الأدنى من صور الانفاق المفروضة فى الاسلام ٠ وتجب فى أنواع عديدة من أنواع الملكية ومصادر الثروة :

فتجب فى النقود (الذهب والفضة) والأوراق النقدية ٠

وتجب فى عروض التجارة والصناعة بعد تقويمها ٠

وتجب فى الأنعام وفى الزروع والثمار وفى المعادن والركاز ، أى فى أهم مصادر الثروة الحيوانية والزراعية والمعدنية ٠

وتتراوح نسبتها بين :

٢½ بالمائة فى النقود وعروض التجارة والصناعة اذا بلغت النصاب (١) وحال عليها الحول ٠

٢½ بالمائة (تقريبا) فى الثروة الحيوانية التى تقتنى للدر والنسل ، اذا بلغت النصاب وحال عليها الحول ٠

---

(١) النصاب عشرون دينارا أى ما يعادل أربعين دولارا (تقريبا) ٠ ويشترط فى النصاب ان يكون زائدا عن الحاجة الضرورية وخاليا من الدين ٠

بين ٥ ــ ١٠ بالمائة فى الثروة الزراعية فى كل حصاد ٠

٢٠ بالمائة فى كنوز الأرض وثرواتها المعدنية ٠ (وان اختلف الفقهـاء هل تصرف هذه فى مصـارف الزكاة فقط أم فى المصالح العامة للدولة) ٠

ومن هذا يتبين أن الدخل الذى يتجمع من الزكاة وحدها هو دخل كبير ، ينبغى ــ اذا جمع ونظم ــ أن يقوم بدور حاسم فى حل مشاكل التخلف عند المسلمين ، ولا سيما مشكلة الفقر (١) ٠

فاذا لم تكف الزكاة فعلى الحكومة الاسـلامية أن تتخذ ما تراه ضروريا من الوسائل لتحقيق مصالح المسلمين ٠ وقد سبق الاستشهاد بآية البر التى تبين أن فى المال حقا سوى الزكاة ٠ بل ان الاسلام ليجعل التكافل فى المجتمع الاسلامى فريضة لازمة ، لقوله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (التوبة ٩/٧١) ٠

« انما المؤمنون اخوة » (الحجرات ٤٩/١٠) ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (البخارى) ٠ وقوله :

« أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله (الحاكم) ٠

هذا كله بالاضافة الى الواجب الأساسى على الحكومة الاسلامية وهو اتاحة العمل لكل قادر ، وضمان الكفاية لكل عاجز ٠

وتنفق أموال الزكاة على مستحقيها وهم ثمانية أنواع :

١ ــ **الفقراء :** وهم المحتاجون الذين لا يسألون الناس ٠

٢ ــ **المساكين :** وهم المحتاجون الذين يسألون ٠

٣ ــ **العاملون عليها :** وهم موظفو الزكاة الذين يتولون جمعها وتنظيم صرفها ٠

---

(١) راجع بتوسع : يوسف القرضاوى : فقه الزكاة فى جزءين ومشكلة الفقر وكيف عالجها الاسلام ٠

٧ ـ **المؤلفة قلوبهم** : وهم المحتاجون ممن اعتنقوا الاسلام حديثا ٠

٥ ـ **الغارمون** : وهم المدينون المستغرقة أموالهم بالديون ٠

٦ ـ **فى الرقاب** : وهم الأرقاء ٠

٧ ـ **أبناء السبيل** : وهم المسافرون المنقطعون عن أموالهم ٠

٨ ـ **فى سبيل الله** : وهو مصرف عام تحدده الظروف ، ويشمل اعانة المجاهدين ، وعلاج المرضى ، وتعليم العاجزين ماليا عن التعليم ٠

وهذه الأنواع الثمانية هى المذكورة فى قوله تعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (التوبة ٩/٦٠) ٠

مفهوم الصدقة :

يتبادر الى الذهن من الاستعمال الشائع لكلمة الصدقة أنها تفضل غنى على فقير بقليل من المال ٠

وهذا مفهوم غريب على الاسلام ٠

فالحقيقة أن الاستعمال الاسلامى لكلمة الصدقة يؤكد أنها ليست تفضلا بحال من الأحوال ، وليست مقتصرة على انفاق المال ٠

أما أنها ليست تفضلا فهذا واضح من تسمية الزكاة (وهى فريضة) صدقة ، **كما فى آية الصدقات ، وكما فى قوله تعالى :**

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (التوبة ٩/١٠٣) ٠

أما الصدقات الأخرى غير الزكاة فلا شك أنها جميعا صور للانفاق من مال لا يملكه صاحبه ملكا حقيقيا ، وانما هو مستخلف فيه كما سبق ٠ **وهو فى حقيقته مال الله كما قال تعالى :**

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (النور ٢٤/٣٣) ٠

فلا يمكن أن يكون تفضلا ، بل هو حق من حقوق شكر النعمة ، ولو لم يقم به الغنى لكان ــ على الأقل ــ كافرا بالنعمة ٠

يضاف الى ذلك ان مفهوم الصدقة فى الاسلام له أبعاد واسعة زمنية واجتماعية ٠

فالصدقة الجارية يمتد نطاقها الى أزمان متطاولة حتى يشمل نفعها أجيالا عديدة من المسلمين بعد موت المتصدق بها ، **كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

« **اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث :** صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (مسلم) ٠

ومن أروع صور هذه الصدقة الأوقاف الاسلامية التى وقفها بعض أغنياء المسلمين فى شتى العصور للانفاق من ريعها على وجوه عديدة من وجوه البر ، ولا سيما على مؤسسات التربية والتعليم ٠

ولمفهوم الصدقة أبعاد اجتماعية جميلة ، بحيث تشمل أى صورة من صور العطاء يقدمها المسلم لأخيه المسلم فى العلاقات الاجتماعية ، **كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :**

« ليس من نفس ابن آدم الا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس » قيل : يارسول الله من أين لنـــا صدقة نتصدق بهـــا ؟ **فقال : « ان أبواب الخير لكثيرة :** التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ٠ فهذا كله صدقة منك على نفسك » رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى مختصرا ، وزاد فى رواية : « وتبسمك فى وجه أخيــك صــدقة ، واماطتك الحجر والشوكة والعظم من طريق الناس صدقة ، وهديك الرجل فى أرض الضالة لك صدقة » ٠ **وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه :**

« **كل سلام من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس :** تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » (الشيخان) ٠

ولا شك أن هذا الحديث يجعل مفهوم الصدقة جامعا لكل معانى الخير التى تربط أفراد المجتمع المسلم برباط الحب والاخاء (١) .

والصيام :

ليس الصيام فى الاسلام مجرد معاناة للجوع والعطش ، وانما هو تدريب للمسلم على ضبط الشهوات ولا سيما شهوات البطن والفرج ، والتخلص من **آفات اللسان وآفات السلوك** . ولذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم ألا يمسك عن الطعام والشراب فحسب ، بل وأن يمسك عن الصخب والفحش وعن قول الزور والعمل به ، **وقال :**

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » (البخارى) . ان من أعظم الشرور فى عصرنا الحاضر امتلاء بطون بعض الأغنياء الى درجة التخمة ، بينما يتضور الملايين من فقراء المسلمين جوعا . وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« ليس منا من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم » .

ان نعمة الطعام هى من أجل نعم الله على الانسان ، والصيام ينبغى ان يذكره بهذه النعمة ، كما ينبغى أن يذكره بشكرها ؛ وذلك بالانفاق منها على المحتاجين وما أكثرهم ! وقد قال الله تعالى فى وصف المؤمنين :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا »

(الانسان ٧٦/٨) .

ولذلك ارتبط الصيام فى الاسلام بالانفاق ، وارتبط صيام رمضان بوجه خاص بزيادة الانفاق ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان أجود من الريح المرسلة .

ومن الواضح أن حشو المعدة بالطعام فى ثلاث وجبات يومية ، والاستمرار على ذلك طوال العمر ـ هو من أخطر العادات التى جلبتها الحضارة الحديثة . وقد أكد الطب والخبرة الانسانية أن امتلاء المعدة بالطعام يؤدى الى كثير من أمراض الجسم والنفس كما قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) راجع محمد قطب : **قبسات من الرسول** ص ١٠٨ ـ ١٢١ .

« ما ملأ ابن وعاء شرا من بطنه » .

ولذلك فان التخفيف من أعباء المعدة بعض الشيء سيؤدى لا الى صحة الجسم فحسب بل الى صحة المجتمع كله ؛ لأن « طعـــام الاثنين يكفى الثلاثة » كما قال صلى الله عليه وسلم .

أليس من الخزى والعار ان يسرف بعض أغنياء المسلمين فيكثرون من أنواع الطعام فى حفلاتهم ثم لا يستطيعون أكله جميعا فيقذفون بما تبقى منه ـ وهو يكفى لاطعام أسر كاملة ـ فى صناديق القمامة ؟

فأى لؤم هذا وأى كفر ؟!

ويرتبط صيام رمضان كذلك بالاعتكاف .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان .

والاعتكاف له معان جميلة ما أحوجنا اليها فى عصرنا هذا ، عصر الآلة والضوضاء ، والثرثرة الاجتماعية التافهة ، واللغو الاعلامى الغث ، والسباق المحموم من أجل شهوات العاجلة .

ولا شك أن سمات عصرنا هذه قد أدت ـ ولا نزال تؤدى ـ الى كثير من التوتر والقلق ، بل والى كثير من أمراض النفس والعقل . انهـا لا تؤدى الى قتل الوقت فحسب ، بل الى قتل الانسان نفسه .

ان الاسلام دين اجتماعى لا يشجع على العزلة والفرار من معمعـة الحياة .

والاعتكاف ـ لذلك ـ ليس هروبا وليس رهبانية .

وانما هو وقفة قصيرة للمؤمن فى رحلة الحياة .

وقفة يلقى خلالهـــا نظرة هادئة شاملة على ما قطع من الطريق ، وما بقى منه ، ويحاسب نفسه ـ فى خلوة العابد المتبتل ـ على ما فرط فى جنب الله .. ثم لتنظر نفسه ما قدمت لغد ..

وخلال الاعتكاف يمارس المسلم حياة التأمل فى النفس والكون ، وهى الحياة التى دعا اليها القرآن فى كثير من الآيات ، ووصف المؤمنين بأنهم :

« يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » (آل عمران ٣/١٩١) ٠

واذا سألنا أنفسنا : لماذا تعانى حياتنا الفكرية والوجدانية الحاضرة كثيرا من التفاهة والسطحية ؟ فسنجد أن ذلك يرجع الى أسباب عديدة من أهمها أننا لا نهتم كثيرا بحياة التأمل والتفكير ، وأن السمة الغالبة على كثير من علمائنا ومفكرينا هى الترديد : الترديد لما قاله منذ زمن طويل علماء كانوا لا شك مجتهدين ولكنهم لم يكونوا معصومين ، أو الترديد لآراء ومذاهب غربية ينقض بعضها بعضا ، وقد نبذها كثير من الغربيين أنفسهم ، بينما تستمر ببغاواتنا فى ترديدها والدعوة اليها ٠

فى الاسلام ، ليس التأمل غاية ، وانما هو وسيلة الى الايمان والعمل الصالح ٠ ولهذا فان حياة التأمل خلال الاعتكاف تنرى الفكر والوجدان ، وتذكر المسلم بالله ؛ فتنقذه من نسيان نفسه اذا نسى الله ؛ كما تنقذه من تفاهات الحياة الدنيا ، فيعد نفسه للقاء الله بالاقبال على الله ٠ ومن ثم يستأنف المسلم مسيرته بعد الاعتكاف وقد ازداد عزما على المسارعة فى الخيرات ، والاستكثار من الصالحات ، وأداء الأمانات التى هى حقوق الله وحقوق العباد ٠

ان المسلم يخرج من الصيام ومن الاعتكاف وقد تزود بالتقوى ، وهى خير زاد فى رحلة الحياة ، ومن أجلها كتب علينا الصيام :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة ٢/١٨٣) ٠

والحج :

يقول الله تعالى :

« الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » (البقرة ٢/١٩٧)

ان الخيرات الروحية والاجتماعية ، والدنيوية والأخروية ، التى تعود على كل مسلم أخلص حجه لله ــ هى خيرات كثيرة معروفة ٠

ويكفى تجرد المسلم فيه عن علائق الدنيا ، ورحيله الى ربه بملابس الاحرام ، التى تذكره بموقفه أمام الله يوم الحساب ٠

ويكفى أن الحج تعبير عملى عن آخوة المؤمنين ، وأنه اجتماع هائل لأمة يرتبط أفرادها برباط الأخوة فى الله ، ويرفضون روابط الجاهلية بالأنساب والألوان ٠

والجهـــاد :

الجهاد فى سبيل الله يشمل كل جهد يبذله المسلم للدعوة الى الله ؛ بالكلمة والقدوة والنفس والمال ٠

وهذا يشمل الجهاد فى كل ميادين الحياة الانسانية ؛ لتحويلها من طريقها الحالى المظلم المسدود ، الى طريق الله ، الذى ينفتح بها على آفاق لا محدودة من الخير والنور ٠

وللجهاد فى الاسلام مستويات كثيرة ، تبدأ بانكار القلب ، وتنتهى بالقتال فى سبيل الله ٠

وبين ذلك الجهاد بالتربية ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١) ٠

والدعاة المسلمون فى عصرنا الحاضر فى أشد الحاجة الى التسلح بالعلم ، والخلق الكريم ، وتقديم الاسلام الى الناس بالقدوة الطيبة والعمل الصالح ٠

وهذه أفضل طريقة لامتثال قوله تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (النحل ١٦/١٢٥)٠

---

(١) راجع المودودى وحسن البنا وسيد قطب : **الجهاد فى سبيل الله** والغزالى : **الاحياء** ٤/٧ ، وابن تيمية : **الحسبة فى الاسلام** ٠

أداء الأمانات

قال تعالى :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء ٤/٥٨) ٠

والأمانة بوجه عام هى تحمل المسؤولية فى كل عمل يؤديه المسلم فى علاقاته بالله والناس ٠

ومن ثم فالأمانات تشمل أداء حقوق الله وحقوق العباد ٠ وحقوق الله هى الايمان به وعبادته وحده والعمل بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

وحقوق العباد ـ وأداؤها يعتبر أداء لحقوق الله ـ تشمل :

فى دائرة الأسرة : حقوق الوالدين ، وحقوق الزوجية ، وحقوق الأولاد ، وحقوق الأقارب ٠

وفى دائرة المجتمع المسلم : حقوق الجيران ، وحقوق المسلمين وحقوق غير المسلمين ٠

وفى دائرة الانسانية : حقوق الناس جميعا ٠

وفى دائرة البيئة الطبيعية : حقوق الطبيعة وحقوق الحيوان ٠

وفيما يلى نعرض هذه الحقوق بايجاز :

حقوق الوالدين : حبهما وطاعتهما (الا فى معصية) ، وبرهما بكل صور البر والاحسان ، فى الحديث والصحبة والخدمة والانفاق والافتداء بالنفس والمال ٠ وحقوق الأم فى كل هذا أكبر من حقوق الأب :

وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا

كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » (الاسراء ١٧/٢٣ - ٢٤) ٠

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير » (لقمان ٣١/١٤) ٠

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات أن أحق الناس بحسن صحبة الابن هى أمه ، ثم أبوه ٠ (فى حديث متفق عليه) ٠

وعقوق الوالدين يعد من أكبر الكبائر فى الاسلام ، حتى لقد قرنه الرسول صلى الله عليه وسلم بالشرك وقتل النفس وشهادة الزور ٠ (فى حديث البخارى) ٠

حقوق الأولاد : وأهمها تربيتهم منذ طفولتهم على الاسلام ٠

ويجب على الزوج الاعداد لذلك باختيار الزوجة الصالحة ، **أى الأم** التى تقع على عاتقها هذه المسؤولية وبخاصة فى السنوات الأولى من الطفولة ، بل وأثناء الحمل ؛ حيث تكون عادات الأم الصالحة فى العبادة والطعام والشراب والنوم من أهم العوامل التى تؤثر تأثيرا حسنا على الصحة الجسمية والنفسية للطفل قبل ولادته ٠

ومن حقوق الأولاد على الوالدين القيام بالانفاق عليهم ورعايتهم ومعاملتهم معاملة حسنة تقوم على الرفق ولا يلجأ منها الى العنف (أى العقوبات الجسدية والنفسية) الا عند الضرورة القصوة ٠ والأسوة الحسنة فى ذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ما ضرب أحدا قط لا امرأة ولا طفلا ولا خادما ٠٠

ولم يكن أحد أحب للعيال منه ، **وهو الذى قال :** « الرفق خير كله وان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه » (مسلم)٠

ومن حقوق الأولاد أن يعاملهم الوالدان بالعدل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يشهده على أنه يريد أن يخص بعض أولاده بهدية ويحرم الباقين: « لا تشهدنى على جور ٠ اتقوا الله واعدلوا فى اولادكم » (الشيخان وأبو داود) ٠

ومن العدل ألا يفضل البنين على البنات ؛ بل عليه أن يزيد فى ملاطفة البنات واكرامهن ، وذلك لضعفهن ، أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالضعفاء وبخاصة النساء واليتامى ٠

وقال عليه السلام :

« من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين » وضم أصابعه · (مسلم) ·

وقال : « اللهم انى أحرج (أى أؤثم من ضيع) حق الضعيفين اليتيم والمرأة » (النسائى) ·

وكان صلى الله عليه وسلم اذا رأى فاطمة قد أقبلت رحب بها ثم قام اليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها فى مكانه (البخارى) ·

وقد نعى القرآن الكريم على الذين كانوا يئدون البنات :

« واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » (النحل ١٦/٥٨ ـ ٥٩) ·

حقوق الزوجية : تقوم العلاقة الزوجية فى الاسلام على المودة والمحبة والرحمة ، وبذلك تكون علاقة متينة ، يقوم عليها سـلام البيت وسكينة النفس **كما قال تعالى :**

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعـل بينكم مودة ورحمة » (الروم ٣٠/٢١) ·

ومن ثم فالزوج المسلم مأمور أن يعاشر زوجته معاشرة طيبة ، وان يعاملها معاملة كريمة،وحتى لو كره منها شيئا فعليه أن ينظر الى مزاياها ولا يركز على عيوبها ؛ **كما قال صلى الله عليه وسلم :**

« لا يفرك مؤمن مؤمنة (أى لا يبغضها) ؛ ان كره منها خلقا رضى منها آخر » (مسلم) ·

وقال الله تعالى :

« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (النساء ٤/١٩) ·

والزوج مسؤول عن الرعاية المالية لزوجته ؛ وذلك بالانفاق عليها فى جميع ما تحتاج اليه حسب استطاعته ·

وهي مسؤولة عن رعاية شؤون بيته ؛ بحيث تجعله مأوى يلوذ به من عناء الحياة وعنت الأحياء ٠

وهذه العلاقة الجميلة تتوطد بتقوى الله وعبادته ، كما تتوطد بتعاون الزوجين على البر والتقوى ، ومشاركتهما في تربية الأولاد تربية اسلامية ٠

ولأن الاسلام قد أقام الزواج على أساس متين من علاقات الفطرة التي تتشابك فيها مشاعر الحب والرحمة ، مع ملذات الجنس المحدودة بمسئوليات الانجاب والتربية ، فان هدم هذا البناء هو عمل يبغضه الاسلام ويبغضه الله أشد البغض **كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

« أبغض الحلال الى الله الطلاق » (أبو داود والحاكم) (١) ٠

صلة الرحم : هي أداء حقوق الأقارب ؛ **لقوله تعالى :**

« وآت ذا القربى حقه » (الاسراء ٢٦/١٧) ٠

وقد قرن الله الأمر بعبادته وحده بالأمر بالاحسان الى الوالدين وذوى القربى وكل من يستحقون الصلة من الفقراء والضعفاء فقال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (النساء ٣٦/٤) ٠

وفي سورة الرعد وصف الله المؤمنين بصفات جميلة فقال تعالى :

« الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار » (الرعد ٢٠/١٣ ـ ٢٢) ٠

وهي صفات متكاملة ، يرتبط فيها الوفاء بالعهد بحسن الصلة بالله والناس ووجوب التعبير العملي عن هذه الصلة بالانفاق والتسامح ٠

ووصف الكافرين بعكس هذه الصفات فقال تعالى :

---

(١) اذا كان الطلاق من حق الرجل عند الضرورة القصوى ـ فان الخلع من حق المرأة عند الضرورة القصوى كذلك ، وهي الا تطيق زوجها بغضا ٠ وفي هذه الحالة يجب أن ترد اليه مهرها ٠ والأصل في ذلك ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجة ثابت بن قيس حيث أمرها ان ترد عليه حديقته ، وأن يطلقها (الشيخان) ٠

« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ٠ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » (الرعد ٢٥/١٣) ٠

وقد أكدت السنة أن الايمان الصادق ينبغى أن ينعكس فى صلة ذوى الأرحام ٠

فقال صلى الله عليه وسلم :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » (متفق عليه) ٠
وبر ذوى القربى هو بر يضاعف له الأجر كما قال صلى الله عليه وسلم :

« الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذوى القربى صدقة وصلة » (الترمذى) ٠

والمسلم مأمور بصلة ذوى القربى جميعا حتى ولو كانوا كفارا ٠ **فعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت :** قدمت على أمى وهى مشركة فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم **وقلت :** قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ **قال :** « نعم صلى أمك » (متفق عليه) ٠

حقوق الجوار : وردت الوصية بالجار فى القرآن الكريم كما سبق فى آية النساء ٠ وأكدت السنة النبوية هذه الوصية **فقال صلى الله عليه وسلم :** « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (متفق عليه) ٠ كما أكدت أن اكرام الجار هو ثمرة من ثمرات الايمان ؛ **فقال صلى الله عليه وسلم :**

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » (متفق عليه) ٠

ومن واجبات المسلم نحو جاره أن يعينه فى الضراء ، ويوده فى السراء ، ويجنبه كل أذى ؛ **قال صلى الله عليه وسلم :** « والله لا يؤمن ٠ والله لا يؤمن » **قالوا :** من يارسول الله ؟ **قال :** الذى لا يأمن جاره بوائقه » (متفق عليه) ٠

والبوائق هى الشرور التى تصيب الجيران فى أموالهم ، أو أولادهم ، أو أعراضهم ، أو اى سلوك يتسبب عنه أذى لمشاعرهم ، أو اقلاق لراحتهم ، ولا سيما عن طريق الضجيج والضوضاء ؛ كما هو شائع الآن من الاستعمال الفظ لمكبرات الصوت والمذياع والتليفزيون ٠٠ الخ ٠

ان ايذاء الجار بأية صورة من الصور يتنافى مع مفهوم العبادة فى الاسلام .

فالعبادة الحقة هى التى يترتب عليها سلوك حسن ومعاملة طيبة للناس جميعا ، ولا سيما للجيران . وبدون ذلك فلا معنى للعبادة ولا قيمة لها . **ولما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن امرأة تصوم النهار وتقوم** الليل ولكنها تؤذى جيرانها قال : « هى فى النار » (أحمد والحاكم) .

وحقوق الجار فى الاسلام تشمل المسلم وغير المسلم . وقد كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عندما يذبح شاة يهدى منها لجيرانه ، ويقول : « ابدءوا بجارنا اليهودى » .

حقوق المسلمين : قال الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة » (الحجرات ١٠/٤٩)

ومن حقوق هؤلاء الاخوة مودتهم وموالاتهم لقوله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (التوبة ٧١/٩) .

ومن أجل تأكيد صلات الاخوة بين المؤمنين أوجب الاسلام على كل مسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، **وقال صلى الله عليه وسلم :**

« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » (مسلم) . **كما اوجب على كل مسلم أن يعين أخاه فى وقت الشدة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم :** (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » (الشيخان) . وأن ينصحه ؛ لأن الدين النصيحة .

وأن يشاوره ؛ لأن المؤمنين « أمرهم شورى بينهم »
(الشورى ٣٨/٤٢) .

وأن ينصره مظلوما فيعينه على أخذ حقه ، وينصره ظالما بأن يكفه عن الظلم .

وأن يتعاون معه على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان . وأن يوده ويدعوه ويجيب دعوته ولا يقاطعه أو يهجره فوق ثلاث . وان يتجنب كل ما يسىء اليه أو يضره فى حياته أو ماله أو عرضه ؛ **لقوله عليه الصلاة والسلام :**

« **كل المسلم على المسلم حرام :** دمه وعرضه وماله » (متفق عليه) ٠
كما يتجنب كل سلوك يؤدى الى بذر العداوة بين المسلمين ، أو استفحالها ؛ أو يؤدى الى اضعاف قوتهم ، وتفرقة جماعتهم ؛ ولا سيما الغيبة ، والنميمة، والسخرية ، وسوء الظن ، والتجسس ، واللمز ، والتنابز بالألقاب ٠ وهى الرذائل التى حرمها الله تعالى على المؤمنين فى قوله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ٠ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (الحجرات ٤٩/١١ ـ ١٣)** ٠

ومن حقوق المسلمين أن يهتم المسلم بقضاياهم ، ويشعر بآلامهم ، ويحمل همومهم ؛ لأنه واحد منهم ٠ **وقد قال صلى الله عليه وسلم :**

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ٠

حقوق غير المسلمين :

اذا كانوا مسالمين ؛ أى لا يعتدون على المسلمين ؛ ولا يقاتلونهم فى دينهم ؛ ولا يخرجونهم من ديارهم ـ فيجب على المسلمين معاملتهم ليس بالعدل فحسب ؛ بل بالبر والاحسان كذلك ٠ وهذا الحكم يشمل غير المسلمين جميعا حتى المشركين والوثنيين ٠

والأصل فيه قوله تعالى :

« **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (الممتحنة ٦٠/٨)** ٠

أما أهل الكتاب فان الاسلام يعاملهم معاملة خاصة ؛ فيسميهم « أهل الكتاب » ، اشارة الى أنهم أقرب الى المسلمين من غيرهم ، لأنهم يؤمنون بكتب منزلة من عند الله ، كانت فى أصولها ـ أى قبل تحريفها ـ تدعو الى التوحيد ٠ والمسلمون مطالبون بالايمان بالكتب الموحى بها ، وكذلك برسل الله جميعا ٠

وقد أباح الاسلام للمسلمين صورا شتى من مودة أهل الكتاب ،

ومنها مؤاكلتهم ، وأكل ذبائحهم ومصاهرتهم ، أى التزوج ببناتهم ·

فاذا كانوا يقيمون فى ظل الدولة الاسلامية ، فانهم فى هذه الحالة يعاملون كمواطنين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، الا فيما يخص الدين ، فانهم لا يكرهون على الاسلام ، وقد أمرنا أن نتركهم وما يدينون ·

كما يجب على الدولة الاسلامية حماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، ويجب على كل مسلم أن يتجنب كل ما فيه أذى لهم أو اضرار بهم ·

قال صلى الله عليه وسلم :

« من آذى ذميا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله » (الطبرانى) ·

« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه ــ فأنا حجيجه يوم القيامة » (أبو داود) ·

حقوق الرعية :

يرى ابن تيمية (١) أن الآية الكريمة :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء ٤/٥٨) ·

تشير الى مسئولية الولاة بوجه خاص ·

والولاية عنده تشمل كل عمل عام يمس حقوق الناس لقوله صلى الله عليه وسلم :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعينه » (الشيخان) ·

وولاة المسلمين مأمورون من الله بأداء الأمانات الى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ·

وأداء الأمانات عنده نوعان : فى الولايات ، وفى الأموال ·

ففى الولايات يجب على كل رئيس فى أى مجال من مجالات العمل العامة فى المجتمع أن يولى على كل عمل أصلح من يجده لذلك العمل ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) السياسة الشرعية ص ٦ ، ٢٧ ·

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله » وفى رواية « وخان المؤمنين » (الحاكم) ٠

أما فى الأموال فأن يأخذ المال من حله (أى من مصادره المشروعة) ، ويعطى منه لكل ذى حق حقه ٠ فان لم يفعل فقد ارتكب كذلك خيانة لله ورسوله والمؤمنين ٠

ويرى الماوردى (١) أن حقوق الأمة الاسلامية على الامام (أى واجباته نحوها) هى :

١ ــ حفظ الاسلام على أصوله وحمايته من البدع والشبهات ٠

٢ ــ نشر العدل

٣ ــ حفظ الأمن

٤ ــ اقامة الحدود (العقوبات المقررة فى الشريعة) ٠

٥ ــ تحصين الثغور (أى حماية الدولة الاسلامية بكل وسائل الدفاع)

٦ ــ الجهاد لنشر الاسلام

٧ ــ جباية المواد المالية للدولة

٨ ــ صرف الرواتب والمكافأت لمستحقيها ٠

٩ ــ تولية ذوى الكفاءة والأمانة فى شتى مناصب الدولة ٠

١٠ ــ الاشراف العام بنفسه على شئون الدولة بحيث لا يتكل على تفويض غيره ٠

فاذا أدى الامام هذه الحقوق وجب له على الأمة حقان :

الطاعة والنصرة ٠

حقوق البيئة الطبيعية :

وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير الى الأرض وما فيها من ثروات طبيعية ومناظر جميلة ، وبخاصة ما فيها من أنهار وبحار وأودية

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٥ ــ ١٧ ٠

وجبال ؛ وزروع ناضرة وحدائق ذات بهجة ؛ وحيوانات تجمع بين النفع والجمال ٠

وبالاضافة الى أن هذه الآيات توقظ فى وجدان المسلم الاحساس بجمال الطبيعة ـ فهى تدعوه كذلك الى اعتبار هذا الجمال من أجل نعم الله على الانسان ٠

وأقل ما يقتضيه شكر هذه النعمة المحافظة عليها ؛ وعدم تعريضها للتخريب والفساد ٠ ولذلك فان اهلاك الحرث والنسل يعد فى القرآن الكريم من أقبح صور الفساد التى يبغضها الله ٠

وشكر نعمة الله فى الزروع والثمار يتخذ فى القرآن صورة عملية جميلة ، هى اتاحة المسلم الذى يملكها لمن لا يملكها حق المشاركة معه بنصيب من خيراتها ، والاستمتاع بطيباتها ، كما قال تعالى :

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الأنعام ٦/١٤١) ٠

وانظر الى دعوته صلى الله عليه وسلم كل مسلم ـ حتى فى أشد الأوقات حرجا ـ أن يبذل كل جهد يستطيعه ليجعل الأرض جميلة خضراء ٠

« ان قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فان استطاع الا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (البخارى) ٠

بل انظر الى دعوته صلى الله عليه وسلم كل مسلم أن يجعل زروعه وثماره متاحة ليس للانسان فحسب ، بل وللحيوانات والطيور كذلك :

« لا يغرس مسلم غرسا فيأكل منه انسان ولا دابة ولا طير الا كان له صدقة الى يوم القيامة » (الشيخان) ٠

أما حقوق الحيوان فيكفى أن نعرض هذه الصور من السنة :

قال صلى الله عليه وسلم :

« بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ٠ فقال

الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى • فنزل البئـر فملأ خفه ماء ، ثم أمسـكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » • قالوا : « وان لنا فى البهائم أجرا يا رسول الله ؟ » فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » (الشيخان) •

ـ وقال صلى الله عليه وسلم :

« دخلت امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » (البخارى) •

وعن عبد الله بن مسعود :

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان فأخذناهمـا ، فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) • فلما جاء صلى الله عليه وسلم قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها » (أبو داود) •

ـ مر عبد الله بن عمر بفتيان من قريش وقد نصبوا طيرا واتخذوه غرضا (أى هدفا يتعلمون عليه الرمى بالسهام) فقال : ان النبى صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا » (الشيخان وأبو داود)

ـ وقال عبد الله بن عباس :

« نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التحـريش بين البهائم » (أبو دواد والترمذى) • والتحريش بينهـا هو اغراء بعضهـا ببعض للتقاتل •

ـ وقد حث صلى الله عليه وسلم على العناية بالحيوان وبكل ذى حياة فى قوله : « فى كل كبد رطبة أجـر » • كما نهى عن تعذيب الحيوان ، وتحميله ما لا يطيق ، وتعذيب الذبيحة ، وأن يذبح حيوان أمام آخر •

ـ ومما سبق يتضح أنه يجب على كل مسلم أن يكون رحيمـا بالحيوان : فيطعمه ويسقيه واذا مرض يعالجه • وبالجملة يعتنى به كـل العناية ، « وانما يرحم الله من عباده الرحماء » •

ومن أهم الأخلاق التى ترتبط بأداء الأمانات :

١ ـ العدل :

وهو صفة من أهم صفات المؤمنين المتقين ، التى تنعكس فى كل نواحى حياتهم النفسية والاجتماعية والسياسية ٠

فالمسلم يكون عادلا مع نفسه ، فلا يظلمها بالانحراف عن شرع الله وتعدى حدوده ، لقوله تعالى :

« ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » (الطلاق ٦٥/١) ٠

وقد أمر الله المؤمنين بالتزام العدل فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم ، وألا يثنيهم عن ذلك صلات القرابة والمودة ، ولا مشاعر البغض والعداوة :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » (الانعام ٦/١٥٢) ٠

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (النساء ٤/١٣٥) ٠

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (المائدة ٥/٨) ٠

والآية الأخيرة تدل بوضوح على أن المسلم ينبغى أن يعامل الناس جميعا ــ مسلمين وغير مسلمين ــ بالعدل والانصاف ٠ فالعدل فى الاسلام مبدأ خلقى مطلق ، يطبق على كل الناس ، وفى جميع الظروف ٠ وليس العدل فى الاسلام ــ كما هو فى المجتمعات العنصرية والطبقية ــ ميزة يحتكر التمتع بها أفراد الجنس الأبيض أو طبقات الأغنياء ٠

والعدل من أخطر المسئوليات التى ينبغى أن تتحملها كل حكومة اسلامية ٠ وقد ورد الأمر بالحكم بالعدل فى سياق الأمر بأداء الأمانات فى قوله تعالى :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء ٤/٥٨) ٠

أما الظلم فان الآيات والأحاديث الواردة فى تحريمه ولعنة مرتكبيه كثيرة مشهورة ٠ ويكفى فى شناعة الظلم ان الله حرمه على نفسه ، وان الظلم كان السبب فى هلاك كثير من الأمم السابقة كما قال تعالى :

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » (يونس ١٠/١٣) ٠

وبسبب الظلم شرع القتال فى الاسلام كما قال تعالى :

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » (الحج ٢٢/٣٩ - ٤٠) ٠

٢ - الوفاء بالعهد :

وهو يجمع عدة أخلاق اسلامية كريمة ، فهو من أداء الأمانات ، وهو من العدل ، وهو من الصدق ٠

فقد وصف الله المؤمنين برعايتهم للأمانة وللعهد معا فقال تعالى :

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (المؤمنون ٢٣/٨) ٠

وأمر تعالى المؤمنين بالعدل والوفاء بالعهد فى سياق واحد :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا » (الأنعام ٦/١٥٢) ٠

ومن أهم معانى الصدق صدق المؤمن فيما عاهد عليه ربه من الثبات على دعوة الحق والعمل على اعلاء كلمة الله حتى الموت :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (الأحزاب ٣٣/٢٣) ٠

والوفاء بالعهد مبدأ عام مطلق - ككل مبادىء الاسلام - ولذلك يفى المسلم بعهوده مع الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين ٠ وقد وفى الرسول صلى الله عليه وسلم بما عاهد عليه المشركين فى صلح الحديبية، فرد أبا جندل اليهم بعد أن أتى الى المدينة مسلما ، وقال له صلى الله عليه وسلم :

« اصبر واحتسب ٠ فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ٠ انا أعطينا القوم عهودا وانا لا نغدر بهم » ٠

نعم : ليس الغدر من مبادىء الاسلام ولا من أخلاق المسلم ٠

٣ ـ الصدق :

المسلم يصدق فى قوله وفعله ، ويصدق مع نفسه ، ومع الله ، ومع الناس . قال تعالى :

« يا أيهـــا الذين آمنـــوا اتقوا الله وكونوا مع الصـــادقين » (التوبة ٩/١١٩) .

وأثنى الله على المؤمنين بأنهم :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » (الأحزاب ٣٣/٢٣) .

ووصف المؤمنين والمؤمنات بالصـــادقين والصـــادقات (الأحزاب ٣٣/٣٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

« ما كان من خلق أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب . ما اطلع على أحد من ذلك بشىء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة » (أحمد) .

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلم (فى بعض الحالات) قد يكون جبانا ، وقد يكون بخيلا ، ولكنه لا يكون قط كذابا (من حديث مالك) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« ان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صـــديقا . وان الكذب يهدى الى الفجور ، والفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (متفق عليه) .

ومن أخبث صور الكذب شهادة الزور ، وقد عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر ، وقرنها لذلك بالشرك وعقوق الوالدين وقتل النفس (البخارى) .

وقد وصف الرحمن عباده بأنهم « لا يشـــهدون الزور » (الفرقان ٢٥/٧٢) .

الكذب على النفس :

ومن أخفى صور الكذب وأخطرها الكذب على النفس ، وهو خداعها بشتى الوسائل ــ كالأمانى الكاذبة، والأهواء والشهوات ــ لتقبل الباطل، وتركن الى متاع الغرور ، وتهرب من مشقات الالتزام بالحق والعمل به ٠

وخداع النفس صفة من صفات المنافقين ، لأن شخصية المنافق ــ كما سنرى ــ شخصية مريضة ، منقسمة على نفسها ، متناقضة الظاهر والباطن ، مختلفة السر والعلن ، وذلك لأنها سلبت صدق الايمان الذى يحقق سكينة النفس عند المؤمن ، لأنه صادق مع نفسه ، وصادق مع غيره ٠ أما المنافق فمصاب بالقلق الدائم ، لأنه يحاول أن يخدع الله والناس عن حقيقته ، وفى الواقع لا يخدع الا نفسه :

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون» (البقرة ٢/٩) ٠

والكذب على النفس صفة من صفات الكافر أيضا ، وذلك لأن الكافر يرفض الهدى مع تيقنه فى أعماق نفسه أنه الحق ، **كما قال الله تعالى**

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (النمل ٢٧/١٤) ٠

ولذلك وصفهم الله تعالى بأنهم :

« كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (الأنعام ٦/٢٤)

٤ ــ الصبر :

من الواضح أن حياة الانسان على هذه الأرض مليئة بالمتاعب والمشقات ؛ وذلك لأنها رحلة من عالم النقص الى عالم الكمال ؛ فهى تشبه رحلة فى بحر متغير الأنواء مضطرب الأمواج ٠ **رحلة محفوفة بالمخاطر والمعاناة حتى يصل الانسان الى بر النجاة :**

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » ٠

(الانشقاق ٨٤/٦)

وحياة المؤمن الصادق ــ بوجه خاص ــ تحفل بمتاعب أكثر ومشقات أعظم ؛ وذلك لأن حياته دعوة دائمة الى الخير ، فلابد أن يقاومها الأشرار ٠

ولعل هذا الصراع مع الشر هو الذى يجعل حياة المؤمن أطيب وأعمق

متعة ؛ لأن مقاومة الشر تجعل للحياة معنى وهدفا ، وهو العمل على انتصار الخير فى النهاية . وفى هذا الصراع لابد أن نجـــد تلازما بين الايمان الصادق والابتلاء ، **كما قال تعالى :**

« احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبـلهم فليعلمن الله الذين صـــدقوا وليعلمن الكاذبين »

(العنكبوت ٢٩/٢ ـ ٣) .

يضاف الى ذلك أن تكاليف الاسلام كلها تحتاج الى الصبر :

فالعبادات كلها تحتاج فى ادائها والمواظبة عليها الى قدر كبير من الصبر والاحتمال . ولذلك يقول الله تعالى :

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » (طه ٢٠/١٣٢) .

ونجد الصبر فى القرآن الكريم يقترن بالأعمال الصالحة لاحتياجها اليه ، **كقوله تعالى :**

« الا الذين صبروا وعملوا الصالحات » (هود ١١/١١) .

يقترن الصبر بوجه خاص بالدعوة الى الله كما فى قوله تعالى :

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » (السجدة ٣٢/٢٤).

وقد وصف المؤمنون فى القرآن بأنهم يصبرون فى البأساء والضراء وحين البأس (البقرة ٢/١٧٧) أى فى كل حالات الشدة ؛ ولا ســيما فى حالة القتال .

ولأهمية الصبر فى صراع الايمان مع الكفر أصبح من أهم الخصائص النوعية التى تميز المؤمنين ، وتؤدى الى انتصـــارهم ولو كانوا قلة ، **كما قال تعالى :**

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »

(البقرة ٢/٢٤٩)

تجنب المحرمات

من صفات المؤمن أن يتجنب المحرمات (١) والرذائل ، ولا سيما :

الشرك بالله : فيحذر الشرك بكل صوره ، الظاهر منها والخفى ٠ فلا يتخذ مع الله الها آخر ، ولا يتخذ الهه هواه ، ولا يعتقد أن أحدا ينفعه أو يضره الا الله ٠ **قال الله تعالى :**

« ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (النساء ٤/١١٦) ٠

عقوق الوالدين : وهو من أكبر الكبائر كما مر فى الحديث ٠

قتل النفس : التى حرم الله ٠ ومن تكريم الله للانسان أنه كرم حياته وأمر بالمحافظة عليها ٠ فحرم قتل المرء لنفسه (أى جريمة الانتحار) :

« ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » (النساء ٤/٢٩) ٠

كما جعل قتل نفس بشرية واحدة كقتل البشرية جمعاء :

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (المائدة ٥/٣٢) ٠

ومن أبشع جرائم القتل قتل الأولاد خشية الفقر ، كما كان يفعل المشركون قديما ، وكما يفعله بعض الغربيين والغربيات حديثا عن طريق الاجهاض ٠ قال تعالى :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا » (الاسراء ١٧/٣١) ٠

---

(١) راجع يوسف القرضاوى : **الحلال والحرام فى الاسلام**

الفواحش : قال تعالى :

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (الأنعام ١٥١/٦).

ومن اخبث الفواحش ارتكاب الزنى ، لما يترتب عليه من آثار مدمرة للجسم والنفس والأسرة والأمة قال تعالى :

« ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء ٣٢/١٧).

الكسب الحرام : ويشمل أكل أموال الناس بالباطل بأية صورة من الصور : كأخذ الربا ، وقبول الرشوة ، والحصول على المال عن طريق السرقة ، أو الغش ، أو الابتزاز ، أو الاحتكار ، أو الميسر ، أو التطفيف ، أو الاتجار فى المحرمات كالخمر والمخدرات ونشر الفحشاء بأية وسيلة وبخاصة وسائل الاعلام .

وقد حرم الله كذلك أكل أموال الضعفاء كاليتامى فقال تعالى :

« ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (النساء ١٠/٤) .

وقد أمر الاسلام بحماية المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال بكل وسائل الحماية حتى بالقتال ، **فقال تعالى :**

« ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » (النساء ٧٥/٤) .

جميع الرذائل التى تؤدى الى الفرقة بين المسلمين : وهى المذكورة فى سورة الحجرات ١١/٤٩ ـ ١٣ وقد سبقت الاشارة اليها فى الحديث عن حقوق المسلمين .

ومن الآيات المحكمات عن المحرمات قوله تعالى :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها

وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون • وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه و لاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الأنعام ٦/١٥١ ـ ١٥٣)•

جميع صفات الكافرين والمنافقين : وقد ذكرناها فى الحديث عن شخصيتى الكافر والمنافق • وصفات الكافر باجمال هى : الجحود ، واليأس ، والشح ، والاسراف ، والترف ، والغرور ، والطغيان ، وموالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين ، والمكر السيء ، والعقلية المادية •

وصفات المنافق باجمال هى : الخداع ، والكذب ، والفسق ، والسفه والتآمر ، وموالاة الكفار ، واختلاق الأعذار (العقلية التبريرية) وجمال الظاهر مع خراب الباطن •

فاذا تحققت صفات الايمان والتقوى فى المسلم ، وتجنب صفات الكفر والنفاق ـ فانه يكون قد اتبع الصراط المستقيم ، ويكون ـ باذن الله ـ من المهتدين •

الآثار النفسية للاهتداء

يتحرر المؤمن بالله ، المهتدى بكتابه وسنة رسـولـه صلى الله عليه وسلم — من جملة من الأمراض النفسية والعقـلية المنتشرة بين الناس ولا سيما فى هذا الزمان ، ومن أخطرها الخوف والحزن ، ويتحقق بسكينة النفس (١) ·

التحرر من الخوف :

ان المخاوف التى تهدد الانسان فى عصرنا الحاضر كثيرة وحقيقيه ومنها خوفه على رزقه وخوفه على حياته وحياة أحبائه ؛ أى خـوفه من الموت · وذلك بسبب انتشار البطالة والظلم الاجتماعى وأعمال العنف وخطف الأطفال وغصب النساء والقتل الفردى والجماعى على نطاق لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية ·

والايمان الصادق ان لم يبدد هذه المخاوف تماما فهو يخفف من حدة آثارها النفسية الى حد كبير ·

وذلك لأن المؤمن وقد تحرر من هذه الجرائم فانه يتحرر من آثارها المدمرة وعواقبها الوخيمة · وهو كذلك يشغل نفسه بالعمل الصالح الذى هو ثمرة الايمان ، والذى يعد من أهم العوامل فى تحقيق الحياة الطيبة كما قال تعالى : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** » (**النحل ١٦/٩٧**) ·

والأعمال الصالحة تستغرق وقت المؤمن وجهده ، وتبعده عن الفراغ الروحى والعقلى الذى يشيع الخوف والقلق والتوتر فى نفوس الكثير من الناس ، ولا سيما فى نفوس الشباب الغربى كما يتضح ذلك فى سلوكهم

---

(١) راجع · أحمد عبد الحميد غراب : **الاسلام فى الحياة اليومية** (بالانجليزية) فصل « سلام النفس » ص ٩٦ ·

الذى كثيرا ما يتخذ أساليب العنف والتخريب وسيلة للتعبير عن نفسه ٠ ومن المعروف أن الطاقات الانسانية اذا لم تجد لها متنفسا فى الأعمال الصالحة فستجد ذلك لا محالة فى « أنشـــــطة » الفساد والانحـــلال والتخريب ٠

ومن أهم الأعمال التى يحرص المؤمن على أدائها واتقانها عمله الذى يكسب به رزقه ٠ فهو يتخصص فيه ، ويتقنه ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » (البيهقى) ٠

ومع أخذ المؤمن بالأسباب فى العمل والكسب فهو دائما يتوكل على خالق الأسباب والمسببات جميعا ٠ ويوقن أن عمله ورزقه وأجله بيد الله وحده ، وكذلك أعمال الناس وأرزاقهم وآجالهم ؛ ومن ثم لا يهلع عند المصيبة ، ولا يجزع عند الشدة ، ولا ييأس من رحمة الله **كما قال تعالى :**

« ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييـــأس من روح الله الا القوم الكافرون » (يوسف ٨٧/١٢) ٠

والمؤمن لا يتمنى الموت ، ولكنه لا يخافه ؛ لأنه يوقن بأنه قدر الله على عباده :

« نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » (الواقعة ٦٠/٥٦) ٠

كما يوقن بأن ما بعد الموت خير وأبقى للمؤمن الذى عمل الصالحات ، وقدم بها لغد ، حيث يرجو لقاء الله ورحمته وثوابه على ما قدم ، وعندئذ لا يخاف ولا يحزن ؛ لأن الله تعالى يقول للمتقين فى ذلك اليوم :

«يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» (الزخرف ٦٨/٤٣)

كما يقول تبارك وتعالى عن المؤمن الصالح :

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما »

(طه ١١٢/٢٠)

وهذا الايمان الذى لا يهاب الموت هو الذى يملأ نفس المؤمن بالعزة فى الدنيا ، ويخلصه من الذلة لغير الله ، أى الذلة للناس ولا سيما أصحاب السلطة والثروة وهو الذى يمكن المؤمن من أن يجهر بكلمة الحق فى وجوه الطغاة والظالمين والفاسدين مهما أوتوا من قوة ٠ وبهذه الروح استطاعت

قلة مؤمنة بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن تهزم كثرة كافرة ، بل وأن تغير وجه العالم من وجه كالح بالكفر الى وجه أخذ ينتشر فيه نور الايمان : « **قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة** » (**آل عمران ٣/١٣**) ٠

« **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين** »
(البقرة ٢/٢٤٩) ٠

ولا شك أن عقيدة التوحيد لها أثر عميق فى تبديد القلق وتحقيق السلام الداخلى فى نفس المؤمن ، وذلك لأن الايمان بالله الواحد الأحد يحفظ النفس الانسانية من التمزق بين ولاءات كثيرة لآلهة متعددة كما يصون أخلاق الانسان من التذبذب والنفاق ، الذى ينشأ عن خوفه من قوى كثيرة متعارضة ، ومحاولته ارضاءها جميعا ٠ ولهذا يتمتع الموحد الصادق بسلام داخلى ولا يتمتع به الكافر والمنافق لأنه يتخذ الله وحده وليا فلا يوزع ولاءه بين أولياء كثيرين ، ولا يبدد طاقاته فى طاعة أرباب متفرقين :

« **قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض** » (**الأنعام ٦/١٤**) ٠

« **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** » (**يوسف ١٢/٣٩**) ٠

وهذا يشبه تبديد طاقات المسلمين اليوم فى ظل نظم غير اسلامية يتنازعهم فيها ولاءان : الولاء لله والولاء للنظام الكافر الذى يعتبر عدم الولاء له خيانة عظمى ٠

كما يفرض على المسلم أن يفصل بين دينه وحياته : فيطبق بعض دينه فى بعض شئون حياته فى البيت والمسجد ولكنه يطبق القوانين الوضعية فى معظم شئونه الأخرى : فى عمله وعلاقاته الاجتماعية ومعاملاته المالية وتربية أولاده ٠ وهذا الانفصام يبدد طاقات المسلم ويملؤه بالتوترات لأنه يوزع ولاءه بين الله والبشر ، ويحدث فجوة هائلة بين ما يعتقد وما يفعل ٠

وهناك عامل آخر من أهم العوامل فى تبديد الخوف واشاعة الأمن فى نفس المؤمن ، وهو أنه ــ لخوفه من الله والتزامه بهدى الكتاب والسنة ــ يحرص دائما على أن يتجنب الظلم مهما كان يسيرا ، فلا يظلم أحدا من الناس ولا سيما الضعفاء الذين يتجرأ الناس عادة على ظلمهم : كالفقراء واليتامى والنساء والغرباء ، بل يعاملهم جميعا بالعدل والاحسان ، وهذا

السلوك اذا قصد به وجه الله تعالى نشأ عنه عادة تجاوب الناس بحب العادل المحسن ، وهذا الحب هو أحد العوامل التى تشعره بالأمن :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (الأنعام ٦/٨٢)

ولكن هناك ما هو أجمل من الشعور بالأمن ، وهو الشعور بالرضى : أى رضى العبد المؤمن بهدى مولاه ، والرضى بهداه يستلزم الرضى بقضائه ، فيتقبل العبد كل ما يجرى له أو عليه فى هذه الدنيا بنفس « مطمئنة » بالايمان ، فتصبح بهذا الايمان « راضية » بالهدى والقضاء ، وتصير بهذا الرضى « مرضية » عند الله :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية »
(الفجر ٨٩/٢٧ ـ ٢٨) ٠

وبهذا يتحقق الرضى المتبادل بين العبد وربه كما قال الله تعالى :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (البينة ٩٨/٨) ٠

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون موقف المؤمن من البلاء فقال :

« ان عظم الجزاء من عظم البلاء ، وان الله اذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » (الترمذى) ٠

أما الظالم للناس ، المضيع لحقوقهم ، المنتهك لحرماتهم ، الباغى عليهم فلا يمكن أن يشعر بالأمن فضلا عن الرضى ، لأنه دائما يتوجس خيفة ممن ظلمهم ، ويتوقع انتقامهم مهما كانوا ضعفاء ، وهم غالبا ما ينتقمون منه على الأقل ببغضهم اياه ، وتمنيهم ما يكرهه ٠ ولهذا لا يشعر بأنه محاط بمن يحبه بل بمن يبغضه ويتربص به ٠ وهو بظلمه قد سلك سلوك من لم يرض بهدى الله ولا بقضائه ، لأن الله حرم الظلم وقدر الرزق ٠ ومن ثم فالظالم ساخط ومسخوط عليه فى الدنيا والآخرة ٠

فاذا اجتمع عليه سخط نفسه ، وسخط الله والناس ، فكيف يشعر بالأمن ؟

التحرر من الحزن :

اذا كان الخوف يتعلق بالقلق على المستقبل فالحزن يتعلق بالقلق على الماضى ، وكلاهما ينبع من تقدير الانسان للحياة الدنيا فوق قدرها والاغترار بها ، والحرص عليها ، مهما بلغت من القبح والذل والانحطاط · والحضارة المادية فى هذا الزمان قد غالت فى قدر المتاع المادى الدنيوى مغالاة تؤدى ببعض الناس ـ عند فقد هذا المتاع ـ ليس الى الحزن عليه فحسب بل الى الجنون والانتحار ·

وهدى الاسلام يكبح جماح هذه المغالاة فى تقدير الحياة الدنيا ، ويضعها موضعها الصحيح فى ميزان الايمان ·

فالمؤمن يأخذ بأسبابها ، ويتمتع بطيباتها ، ولكنه يوقن بأن الحياة نعمة قد تفضل الله بها عليه ، وهبة يستردها أنى شاء منه ، ولذلك يشعر شعورا عميقا بالتسليم لله والرضى بقضائه ، والشكر له على ما أعطى وعلى ما أخذ وكذلك يوقن المؤمن أن حياته ـ وهى محدودة بأجل مسمى انما هى فرصة مؤقتة هيئت له فيها أسباب العمل (على قدر طاقته) لحياة أخرى أبقى وأكمل ·

وبهذا الميزان الدقيق لا يأسى المؤمن على ما فقد ولا يبطر بما وجد :

« لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (الحديد ٥٧/٢٣)

وما سبق عن الخوف والحزن هو مصداق قول الله تبارك وتعالى :

« فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ٢/٣٨)

نموذج الهادى المهتدى الكامل
صـــلى الله عليه وســـلم

المربى الحكيم والرءوف الرحيم :

ترتبط الحكمة بالرحمة فى شخصية الرسول (١) صلى الله عليـــه وسلم ارتباطا وثيقا يظهر فى تربيته للمؤمنين · وقد من الله عليهم بهذه التربية ، اذ تمثلت فيها رحمة الله الواسعة بهم ، فقد أخرجهم بها من الضلال الى الهدى ومن الظلمات الى النور :

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (آل عمران ٣/١٦٤) ·

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » · (الجمعة ٦٢/٢ ـ ٣) ·

« ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (الأعراف ٧/١٥٦ ـ ١٥٧) ·

---

(١) نقتصر من جوانب شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهى جوانب متعددة ـ على أمسها بموضوعنا ، وهى الجوانب التى نرجو من وراء عرضها مقاومة التيار المادى الذى يكتسح العالم الاسلامى اليوم ويكتسح شخصية المسلم ·

وراجع الغزالى : **الاحياء** (كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة) ٧/٩٦ ـ ١٥٧ ·

و د· كمال محمد عيسى . **خصائص مدرسة النبوة** ·

و محمد قطب : **قبسات من الرسول** ·

« لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » • (التوبة ١٢٨/٩) •

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » •
(آل عمران ١٥٩/٣) •

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء ١٠٧/٢١) •

فهذه الآيات نصف مختلف المهام التى كان يقوم بها الرسول صلى الله عليه وسلم ليربى أصحابه : وهى تشمل تلاوة القرآن عليهم ، وتعليمه لهم ، وتزكية نفوسهم بهذه التلاوة وهذا التعليم ، ثم تربيتهم بالقدوة العملية عن طريق سنته الشريفة وفيها تتمثل الحكمة والرحمة معا •

ولم يكتف بتلاوة الكتاب وتعليمه ، بل التزم به وطبقه على نفسه وأهله اولا ، ثم ألزم المؤمنين ـ وقد تعلموه ـ أن يطبقوه كذلك • ومن ثم كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث • وبهذا حرر نفوسهم من عبودية العباد ، وحرر حياتهم من أغلال الجاهلية وأوزارها وقادهم الى حياة اسلامية سمحة طيبة •

ومن أهم مظاهر رحمنه وحكمته فى تربية الناس :

انه بذل كل وسعه وسخر كل طاقاته لاخراجهم من ضلالهم وهدايتهم الى الصراط المستقيم :

ومن أجل هذا قضى مدة بعثته لها . وقد لقى خلالها من المصائب والأهوال ما لا يحتمله الا ذوو العزم من الرسل • وقد صبر عليها جميعا : صبر على الاغراء ، كما صبر على الايذاء والاستهزاء ، وعلى الجوع والضرب ، وعلى المقاطعة والحصار ، وعلى اتهامه بالسحر والجنون ، ومحاولة قتله ، واخراجه وصحبه من ديارهم وأخذ أموالهم بغير حق ، وافتراء الافك على أهله . وتحالف المشركين واليهود والمنافقين على حربه •

وليس فى طاقة بشر أن يصبر على ذلك أو بعضه الا اذا كانت شخصيته قد جمعت بتأييد الله تعالى كل صفات الحكمة والرحمة :

« والله اعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام ١٢٤/٦) •

وقد كان صلى الله عليه وسلم يهلك نفسه أسى وغما لكفر قومه :

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (الشعراء ٣/٢٦) .

ولذلك كان يواجه أذاهم لا بالرغبة فى الانتقام منهم ، بل بالعفو عنهم ، والدعاء لهم : فقد عفا عن الأعراب الأجلاف ممن أساءوا اليه ، وعفا عن المرأة اليهودية التى أرادت قتله بشاة مسمومة ، وعفا عن أعدائه بعد انتصاره عليهم فى فتح مكة وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ومن المعروف أنه قبل فتح مكة كثيرا ما آذاه قومه وأمعنوا فى ايذائه، ومع ذلك كان يدعو لهم بالهداية والغفران .

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

« كأنى أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله عليهم ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » (الشيخان) .

ويكفى فى الدلالة على كريم عفوه وعظيم حلمه أنه نجح فى سياسة شعب أنوف كالعرب لم يتعود الطاعة والخضوع .

انه تجنب الترف وعاش حياة بسيطة زاهدة :

لقد واجه الجاهلية وضـــلالها وقيمها المادية وتفاخرها بالأنساب وتكاثرها فى الأموال والأولاد ، وحياتها المترفة الفاســـقة ، **بقيم القرآن الكريم :**

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » (سبأ ٣٤/٣٧).

فعاش حياة بسيطة خشنة زاهدة .

كان عزوفا عن متاع الحياة الدنيا وترفها ، قانعا بالقليل غنيا بالله عما فى أيدى الناس . وقد فتح الله عليه بلاد العرب ، وأفاء عليه من الأرض والأموال والغنائم ما كان يكفى أن يجعله من أغنى الأغنياء فى عصره لو أراد ، ولكنه آثر دائما أن يفرقه على الفقراء ويعيش واحدا منهم .

لم يأكل على خوان قط ، وما أكل خبزا مرققا حتى مات ، ولم يشبع من خبز الشعير أو القمح ثلاثة أيام متتابعة ، وكان يمر الشهر والشهران على أهله لا يوقدون نارا ، أى لا يطبخون لحما ، وكان ينام على حصير تؤثر فى جنبه الشريف ، وكان فى بيته يساعد أهله ، يحلب الشاة ،

أو يرقع الثوب ، أو يخصف النعل . فعاش فقيرا ومات فقيرا (١) .

عن عمرو بن الحارث أخي جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنهما : « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحه ، وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة » . (البخارى) .

كان المثل الأعلى فى الكرم ، فكان أجود الناس ، وكان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ولا يستعبده المال ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم » . (رواه البخارى) .

والى انفاقه الكريم على الفقـراء والمسـاكين كان يعودهم ويجالسهم ويؤاكلهم ويحث المسلمين على دعوتهم الي الطعام فيقول صلى الله عليه وسلم :

« بئس الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الأغنياء ويترك الفقراء » . الشيخان) .

رحمته بالضعفاء :

كان صلى الله عليه وسلم رحيمـا بالمؤمنين جميعـا ، ولا سيما بالضعفاء (٢) منهم كاليتامى والفقراء والأرقاء والنساء والأطفال : وقد شارك هؤلاء جميعا مشاعرهم ، وأحس آلامهم بل وعاش حياتهم . نشأ يتيما وأحس مرارة اليتم والحرمان من عطف الوالدين . كما نشأ فقيرا ، ولم يرث مالا ، وكان وهو صبى يرعى الغنم لأهلها فى مكة بأجر قليل .

(البخارى)

وأدرك لؤم الناس فى معاملة الأيتام والفقراء بسبب جشعهم على الدنيا وحبهم للمال من قوله تعالى :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما » (الفجر ٨٩/١٧ ـ ٢٠) .

---

(١) راجع النووى : رياض الصالحين ص ٢٤٩ ومابعدها .

(٢) راجع النووى : السابق ص ١٥٢ ، ٢٩٣ ومابعدها .

فكان يكرم اليتيم ويدعو الى اكرامه ويقول : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » ويشير الى السبابة والوسطى (مسلم) .

وقضى طفولته وصباه وشبابه ثم كهولته بعد البعث فى صحبة الاماء والعبيد (١) ثويبة ، وحليمة ، وبركة أم أيمن ، وزيد بن حارثة ، وأسامة بن زيد ؛ وميسرة ؛ وبلال وسمية ؛ وياسر ؛ وعمار ؛ وسلمان ، وصهيب ، والخباب .

وتحقيقا لمبدأ الاسلام فى المساواة بين البشر كان يؤاخى بين الموالى والأحرار : فآخى بين بلال وخالد بن رويحة الخثعمى ، وبين زيد بن حارثة وعمه حمزة ، وبين خارجة بن زيد وأبى بكر ، وكانت هذه المؤاخاة صلة حقيقية تعدل صلة الرحم بل تفوقها .

وتحريضا منه على تحرير الرقيق أعتق كل من كان عنده من الأرقاء ، وكان أبو بكر ينفق أموالا طائلة فى شراء العبيد وتحريرهم أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« من أعتق رقبة استنقذ الله بكل عضو منها عضوا منه من النار » (متفق عليه) وقال : « من قتل عبده قتلناه ؛ ومن جدع عبده جدعناه ؛ ومن أخصى عبده أخصيناه » (الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى)

واستنادا على هذه المساواة رأى أبو هريرة رجلا يركب دابة وخلفه عبد يجرى فصاح به : يا عبد الله احمله خلفك ، انما هو أخوك . روحه مثل روحك » .

وعن الاماء قال صلى الله عليه وسلم :

« من كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » (متفق عليه) وكانت الأمة من أهل المدينة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت (البخارى) .

كان لبنى مقرن أمة خادمة فلطمها احدهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعتقوها . (مسلم) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من ضرب غلاما له أو لطمه فان كفارته أن يعتقه » (مسلم) .

وقال عن الموالى والخدم : « هم اخوانكم .. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولاتكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم » (متفق عليه) .

---

(١) عن معاملته (ص) للرقيق راجع . محمد قطب : **شبهات حول الاسلام** ص ٣٧ ، محمد شوكت التونى : **محمد محرر العبيد** ص ١٠٢ .

أما عن النساء فكثيرا ما أوصى بهن خيرا وقال « خيركم خيركم لأهله » ، و « خياركم خياركم لنسائهم » . وأوصى بالنساء خيرا فى آخر خطبة وهى خطبة الوداع ؛ ودعا الى تربيتهن وجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ولما سمع أن عليا رضى الله عنه يفكر فى الزواج على فاطمة رضى الله عنها قال : « ان فاطمة بضعة منى ؛ يريبنى ما أرابها ؛ ويؤذينى ما آذاها » (أخرجه الخمسة الا النسائى) .

وكان من أهم دروس التربية لنسائه — وللنساء المسلمات جميعا — أن يبين لهن أن اكرام الرجل للمرأة لا يعنى أن يهيىء لها حياة الترف والبذخ . فقد خير نساءه — كما أمره ربه — بين حياة التقشف معه ؛ أو حياة الترف بدونه :

« **يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما** » (الأحزاب ٣٣/٢٨ — ٢٩) .

والترف — بكل مظاهره المادية — لا يعتبر فى الاسلام أسلوبا مقبولا لتكريم الانسان رجلا كان أو امرأة ، بل هو فى حقيقته اهانة للانسان ، لأنه « تكريم لجسده وشهواته على حساب روحه وتقواه ، وهو يؤدى الى قسوة القلب وغفلته عن ذكر الله ، كما يؤدى الى تبلد الاحساس ، ولا سيما بالنسبة لآلام الفقراء والمستضعفين . ولذلك يؤكد لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المظاهر المادية ليست هى المقاييس الحقيقية لتكريم الانسان فى الاسلام :

« ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا رب مكرم نفسه وهو لها مهين ؛ ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » .

« انه ليأتى الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » (متفق عليه) .

« رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » (مسلم)

« ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » (مسلم) .

أما حبه للأطفال فيقول أنس بن مالك رضى الله عنه : « ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم » (مسلم) .

وكان ابنه ابراهيم مسترضعا فى عوالى المدينة فكان ينطلق ويدخل البيت الذى كان فيه ؛ فيأخذه فيقبله ثم يرجع (مسلم) .

وكان يركب الحسن والحسين رضى الله عنهما على ظهره ويمشى على أربع ويقول : « نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما » (الطبرانى) .

وكان يسجد فيأتى الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال : يا نبى الله أطلت السجود . فيقول : « ارتحلنى ابنى فكرهت أن أعجله » (أبو يعلى) .

وخرج على أصحابه ومعه امامة بنت أبى العاص (أى بنت بنته) على عاتقه فصلى ، فاذا ركع وضعها ، واذا رفع رفعها (البخارى) .

وقبل الحسن رضى الله عنه فقال له الاقرع بن حابس : « لقد ولد لى عشر ما قبلت واحدا منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » (الطبرانى) .

وكان يسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته لما يعلمه من وجد أمه عليه (الشيخان) .

وأرسلت اليه صلى الله عليه وسلم احدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا لها فى الموت فقال للرسول : ارجع اليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب . فعاد الرسول فقال : انها قد أقسمت لتأتينها فذهب النبى اليها ومعه بعض أصحابه فرفع اليه الصبى فى حالة النزع . ففاضت عيناه فقال له سعد ابن عبادة : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء » (أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة) .

كان صلى الله عليه وسلم ــ كما وصفته السيدة خديجة ــ رضى الله عنها ــ رحيما بالضعفاء من كل نوع ، فكان يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الدهر .

ولم تكن رحمته بالضعفاء انفعالا عاطفيا ، وانما كان منهجا ربانيا يبنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة أفرادها «يهدون بالحق وبه يعدلون» (الأعراف ٧/١٨١) .

جاء اليه أعرابى يتقاضاه دينا فاشتد عليه ، فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك أتدرى من تكلم ؟ فقال الأعرابى : انى أطلب حقى . فقال صلى الله

عليه وسلم : « هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ » ثم أرسل الى خولة بنت قيس فاقترض منها تمرا فقضى منه دين الأعرابى وأطعمه ، فقال : أوفيت أوفى الله لك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أولئك خيار الناس ، لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع » (ابن ماجة) . ولذلك فقد حفل المنهج الربانى الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتشريعات التى تهدف الى حماية الضعفاء . تشريعات الأسرة تهدف فى كثير من جوانبها الى حماية النساء واليتامى والأطفال ، وتشريعات المكاتبة والتدبير والاستيلاء والظاهر وعقوبة القتل الخطأ وكفارة اليمين تهدف كلها الى تحرير الرقيق ، وتحريم الربا والاحتكار تهدف الى حماية المدينين والفقراء والمستضعفين ومن أجل الضعفاء شرعت الزكاة وشرع الانفاق بل ومن أجل الضعفاء شرع القتال .

« ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » (النساء ٤/٧٥) .

« أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » (الحج ٢٢/٣٩ ـ ٤٠) .

المربى الحكيم يحطم اغلال الكفر

أغلال الكفر كثيرة وثقيلة ، تخنق النفس البشرية ؛ وتحيل الانسانية الى شقاء . وشر هذه الأغلال هى الأغلال النفسية :

تأليه البشر : أى عبادة العباد ، أو عبادة الانسان نفسه وهواه .

عبادة المادة : أى حب الدنيا ومتاعها المادى حبا يجعلها غاية فى ذاتها ولا وسيلة الى الآخرة ، فيتهالك الانسان عليها ، فينسى نفسه وربه ، ويغفل عن لقاء الله والمسئولية أمامه يوم الحساب .

التعصب للقبيلة أو الشعب أو القوم أو الوطن أو الجنس أو تقاليد المجتمع أى تقاليد الآباء والأجداد ، مع ظهور ضلالها وانحرافها .

السلوك الكافر فى الحياة : وينبع هذا السلوك من أخلاق كافرة ، على رأسها : الجحود بنعم الله ولا سيما نعمة هداه ، والجهل ، والغرور ، والطغيان ؛ (ويشمل كل أنواع الظلم) ؛ والشح بالمال على المحتاجين ؛ والترف ؛ والفسق ؛ والفساد فى الأرض ؛ وموالاة الكفار ومعاداة المؤمنين .

وقد عصم الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم من كل هذه الصفات، وحرر نفسه من كل هذه الأغلال . والى ذلك جمع فى شخصيته كل صفات المهتدى الكامل ، فكان الأسوة الحسنة لجميع المؤمنين المتقين . وذلك لأن الله رباه على هداه كما قال صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » فكان — كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « خلقه القرآن » ، ولذلك قال الله له : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (القلم ٦٨/٤) .

وعلى هدى القرآن ربى النبى أصحابه ، فأنشأ خير جيل . وعلى هدى القرآن ربيت أجيال أخرى متتالية حتى اليوم : « وآخرين لم يلحقوا بهم » . وبهذه التربية وجدت « **خير أمة أخرجت للناس** » . يقول الله تعالى لنبيه (ص) :

« **وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** » (**النساء ١١٣/٤**) .

« **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير الأمور** » (**الشورى ٥٢/٤٢ — ٥٣**) .

وقد ربى النبى أصحابه والأجيال التى لم تلحق بهم تربية حطمت أغلال الكفر فى نفوسهم أولا ، فأدى ذلك الى تحطيم أغلال الكفر فى حياتهم ومجتمعاتهم .

لقد غير نفوسهم من الداخل ، فمحا منها ذل العبودية لغير الله ، وملأها عزة بالله ورسوله والمؤمنين ؛ وهذا هو التحرير الحقيقي للعبيد : تحرير نفوسهم الذى أدى الى تحرير رقابهم من الرق ؛ وتحرير حياتهم من الطغيان .

ونجد هذا واضحا فى الفروق الهائلة بين نفسية أصحابه قبل الاسلام وبعده . ولا سيما فى شخصيات الضعفاء والفقراء والعبيد والاماء . لقد كانوا أذلاء مستضعفين . وكانوا يشعرون أنهم أذلاء مستضعفون ، ولكنهم بعد الايمان تحرروا من هذا الشعور فحرروا أنفسهم وحرروا غيرهم من أغلال الكفر وعبودية العباد :

« **واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** »

(**الأنفال ٨/٢٦**)

وهذا ينطبق على أجيال أخرى كثيرة تالية : أجيال ورثة الأنبياء والمجاهدين والشهداء الذين سقطوا وهم يقاتلون قوى الكفر فى كل مكان . أولئك الذين أسقطوا الامبراطوريات ، وثلوا عروش الطغاة ، وصدوا جيوش التتار والصليبيين ، وقاوموا الاستعمار الغربى الكافر فى أفريقيا وآسيا ، ومازالوا يقاومون الزحف الصليبى ــ اليهودى ــ الشيوعى المتآمر على الاسلام والمسلمين تحت أسماء عديدة ، وعناوين مختلفة ، ولكنه فى حقيقته مؤامرة واحدة ، لأن الكفر كله ملة واحدة .

وهذه الاجيال المتعاقبة من المسلمين تحطم أغلال الكفر بدرجات متفاوتة بقدر ما فى قلوبها من جذوة النور المقدس التى وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس فقط فى قلوب أصحابه ، بل وكذلك فى قلوب « آخرين لما يلحقوا بهم » :

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** » (**النور ٢٤/٥٥**) .

« **الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** » (**الحج ٢٢/٤١**) .

٤ ـ شخصية الضال

الانسان الضال بوجه عام هو كل انسان لا يؤمن ولا يعمل بهدى الله ، أى لا يتبع الاسلام ٠

فاذا كان عدم الاتباع ناشئا عن تعمد ، وبعد علم بالاسلام وتبين له ، أو امكانية العلم والتبين ـ فالانسان ضال كافر ٠

واذا كان عدم الاتباع ناشئا عن جهل غير متعمد بالاسلام أو عن اكراه ـ فالانسان ضال غير كافر ٠

ونبدأ ببيان الأول فنقول :

الانسان الضال الكافر هو من لا يؤمن ولا يعمل بهدى الله ، بعد أن نبين له أنه الهدى ، أى يرفض الاسلام بعد علم وعن اختيار وتعمد ، فلا يرضى به دينا ، ولا بالله ربا ، ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ٠ يقول الله تعالى :

١ ـ « ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » (محمد ٢٥/٤٧) ٠

٢ ـ « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » (النساء ١١٥/٤) ٠

٣ ـ « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (التوبة ١١٥/٩) ٠

٤ ـ « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء ١٥/١٧) ٠

٥ ـ « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (النساء ١٦٥/٤) ٠

٦ ـ « **يا معشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين : ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** » (**الأنعام ٦/١٣٠ ـ ١٣١**) ٠

٧ ـ « **لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى** » (**البقرة ٢/٢٥٦**)

فهذه الآيات ـ وكثير غيرها ـ تدل بوضوح على أن الضال عن هدى الله يعتبر كافرا اذا **تحقق فيه شرطان :**

١ ـ عنصر الاختيار : أى أنه فضل الضلال على الهدى بمحض اختياره وارادته ، وبدون اكراه ٠

٢ ـ عنصر التبين : اى أن الهدى قد بين له بيانا كافيا حتى تبين له ٠ ولم يعد لديه عذر فى الاحتجاج بجهله به ٠

ويندرج تحت الضال الكافر الشخصيات التالية :

١ ـ المشرك :

وهو من يتخذ مع الله الها آخر أو الهة أخرى ٠ قال تعالى :

« **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا** » (**النساء ٤/١١٦**) ٠

٢ ـ الملحد :

وهو من لا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ أى ينكر وجود الله كما ينكر الوحى والرسالة والبعث والجزاء ٠ قال تعالى :

« **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** » (**النساء ٤/١٣٦**) ٠

ويشمل فى العصر الحاضر الشيوعيين والوجوديين والعلمانيين وكثيرا ممن يسمون فى الغرب فلاسفة ومفكرين وعلماء ٠

٣ الكتابى :

وهو المنتمى الى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وهم جميعا يكفرون بالاسلام · قال تعالى :

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » (آل عمران ٣/٨٥)

وقال تعالى عن اليهود :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (البقرة ٢/٨٩) ·

وقال تعالى عن النصارى :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم » ـ « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » (المائدة ٥/٧٢ ، ٧٣) ·

٤ ـ المرتد :

وهو المسلم الذى خلع ربقة الاسلام من عنقه وبدل ايمانه كفرا · قال تعالى :

« ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » (البقرة ٢/١٠٨) ·

٥ ـ المنافق :

وهو من يظهر الايمان ويبطن الكفر · قال تعالى :

« ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » (النساء ٤/١٤٠) ·

ولكل شخصية من هذه الشخصيات صفات وخصائص معينة تميزها عن غيرها ولكنها جميعا تشترك فى صفات وخصائص عامة تجمعها · ومجموع هذه الصفات والخصائص ، أى اجتماعها فى انسان ، هو ما يكون الشخصية الضالة الكافرة ، أو شخصية الكافر ·

وفيما يلى نبين هذه الصفات العامة لشخصية الكافر ·

شخصية الضال الكافر

فى القرآن صفات كثيرة تميز شخصية الكافر وأهمها ما يلى :

١ ـ الجحــود

وهو انكار النعمة وعدم الاعتراف بفضل المنعم ، ومن ثم عدم القيام بشكره · والكافر يجحد كل نعم الله عليه ، وهى تندرج تحت نوعين :

(أ) نعمة الهدى :

وهى أجل النعم ، فهو يكفر بمصدر الهدى وهو الله تعالى ، فينكر وجوده أو يتخذ له ندا ، كما يكفر بلقاء الله وباليوم الآخر وكذلك يكفر بالهدى نفسه ، فينكر الوحى والرســالة ، ويكذب بآيات الله فى القرآن والكون ويعرض عنها وعن دلائلها ، فلا يتخــذ منها هاديا يهــديه للايمان والعمل الصالح ·

وقد وردت آيات كثيرة تشير الى جحود الكافرين لهذه النعمة وأن ذلك من أهم أسباب ضلالهم ، ومن أجله سموا كافرين · ومن هذه الآيات قوله تعالى :

« وما يجحد بآياتنا الا الكافرون » (العنكبوت ٢٩/٤٧) ·

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضــل ضلالا بعيدا » (النساء ٤/١٣٦) ·

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (المائدة ٥/ ٤٤) ·

« قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون · والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٢/٣٨ ـ ٣٩) ·

« ساصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وان

يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنهـا غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (الأعراف ١٤٦/٧ ــ ١٤٧) ٠

« **وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليهـا وهم عنهـا معرضون » (يوسف ١٠٥/١٢) ٠**

(ب) النعم الأخرى :

ولا سيما خلق الانسان فى أحسن صورة ، ورزقه من الطيبات ، وتكريمه بالاستخلاف فى الأرض وتسخير الكون ــ وهى نعم لا تحصى كما قال تعالى :

« **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان ٢٠/٣١) ٠**

« **وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصـوها ان الانسان لظلوم كفار » (ابراهيم ٣٤/١٤) ٠**

ولا شك أن الكافر يجحد أيضا هذه النعم كلها ، لأنه يجحد المنعم بها ، ولا يعترف بفضله ، فلا يعبده أو لا يفرده بالعبادة ٠

وفى معرض تعداد النعم على الناس يشير القرآن الكريم الى جحـود الكفار لهذه النعم :

« **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ٠ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعـون » (النحل ٧٢/١٦ ــ ٧٣) ٠**

« **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ٠ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » (العنكبوت ٦٧/٢٩) ٠**

وفى حوار قرآنى رائع نجد الفقير ينكر على صاحبه الغنى ذى الجنتين أنه كفر بالله وأنه كفر بنعمه وبطرها :

« **قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ٠ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحـدا » (الكهف ٣٧/١٨ ــ ٣٨)**

ولا شك أن الجحود صفة قبيحة عند العاقل ، تشمئز منها الفطرة الاسلامية ويستطيع الانسان أن يدرك قبح هذه الصفة من نفور الناس بفطرتهم من الجاحد وحكمهم على شخصيته بالانحطاط الخلقى . وهناك تشابه واضح بين سلوك الجاحد وسلوك الحيوان ؛ فكلاهما رغم حاجته الشديدة الى النعمة ينسى فضل المنعم ؛ بل ويتنكر له ؛ ويسيء اليه : فكأنه كلب عقور يعض اليد التى تطعمه . ومن ثم شبه الله تعالى الكفار بالأنعام لأنهم يتمتعون بالنعمة ولا يشكرون المنعم :

« يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (محمد ١٢/٤٧) .

واذا كان قبيحا بالانسان أن يجحد نعمة انسان آخر أو أناس آخرين عليه ــ وهذه النعمة مهما عظمت فلن تتجاوز نطاق « المعونة البشرية » المحدودة بحدود الزمان والمكان والضعف البشرى ــ فكيف بمن يجحد نعم خالقه ورازقه وهاديه ؟

وخلق الجحود ينم عن لؤم الشخصية وخسة الطبع لأنه يجمع بين الكذب والغدر والظلم :

أما أنه كذب فلأن المتفضل قدم بالفعل خيرا للمتفضل عليه ؛ فانكار هذا الخير كذب صريح .

وأما أنه غدر فلأنه قابل الاحسان بالاساءة ، وهذا ما تنفر منه الفطر السليمة ؛ وتشمئز الطباع المستقيمة :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن ٦٠/٥٥) .

وأما أنه ظلم فلأنه بخس للحق .

واذا انتشر هذا الخلق الدنيء بين الناس فى أى مجتمع فلا شك أن مصيره ــ عاجلا أو آجلا ــ الى الخراب والانهيار .

ففى مثل هذا المجتمع الجحود لن يعرف لذى حق حقه ، ولا لذى فضل فضله . فلن يقدر لعالم علمه ، ولا لمصلح اصلاحه ، ولا لمنجز فى أى ميدان انجازاته . وعندئذ يستوى الخبيث والطيب ، بل فى الواقع يفضل الخبيث ، لأن مجرد جحود العمل الطيب معناه تفضيل الخبث ، والتشجيع على انتشاره .

ومن هنا تنقبض معظم الصدور عن فعل الخير ، وتمسك الأيدى عن

العطاء . ويحجم الكثيرون عن العمل الصالح ، ويصبح القابض على دينه ـ أى الملتزم بالايمان والعمل الصالح ـ كالقابض على الجمر ·

وهذا الموقف المخزى هو الذى يتكرر فى كل المجتمعات الاسلامية المعاصرة تقريبا · فبينما نجد المجتمعات الكافرة تقدر علماءها وابطالها بكل الوسائل ، نجد المجتمعات « الاسلامية » تقتلهم حقيقة أو مجازا : حقيقة بسفك دمائهم ، أو مجازا بقتل مواهبهم ·

وهذا الجحود من شر انواع الكفر بنعمة الله ؛ لأن مواهب البشر (ولا سيما مواهب العلم والمعرفة هى من أجل نعم الله عليهم · واستخدامها فيما خلقت له هو التعبير الوحيد الصحيح عن شكر المنعم تبارك وتعالى · وقد أخبرنا سبحانه أنه سيعاقب كل من لهم مواهب لا يستخدمونها ، وطاقات معطلة لايستفيدون منها ولايتركون غيرهم يستفيد منها · فيصيرون بذلك شرا من الحيوانات ، لأن هذه تستخدم غرائزها واحساساتها فيما يفيدها ويفيد غيرها :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها،ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (الأعراف ٧/١٧٩) ·

وقد صرح القرآن الكريم بأن الانسان ولد جاهلا ، فأنعم الله عليه بكل وسائل المعرفة : كالسمع والبصر والعقل ، ليشكر الله عليها باستخدامها فيما خلقت له :

« والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (النحل ١٦/٧٨) ·

٢ ـ اليأس

من أهم معانى اليأس فى القرآن معنيان :

(أ) اليأس من رحمة الله ·

(ب) الجزع عند الشدة ·

وبين المعنيين صلة وثيقة ، فالذى لا ايمان له بالله لا يرجو لقاءه ، ولا يتوقع رحمته ، ولا يتوكل عليه ،ومن ثم لا ينتظر منه سبحانه وتعالى عونا على المصائب ، ولا مخرجا من الشدائد · فعندما تحل به مصيبة فى

متاع الحياة الدنيا كالمال والولد فانه يجزع جزعا شديدا (وهذا الجزع يؤدى ببعض الكافرين الى الجنون أو الانتحار) ، وذلك لأنه يقدر متـاع الحياة الدنيا فوق قدره ، ويبالغ فى قيمته ، ومن ثم يجزع على فقده أشد الجزع ٠

وهو لكفره بالآخرة تصبح العاجلة أكبر همه ، بل كل همه ، وما يحدث فيها يعد بالنسبة اليه نهاية المطاف ٠ ولكفره بالله يشعر أنه عند الشـــدائد يقف وحده ، وهو كذلك لأنه تخلى عن الله فتخلى الله عنـــه يقول الله تعالى :

« والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى » (العنكبوت ٢٣/٢٩) ٠

« انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » (يوسف ٨٧/١٢) ٠

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » (الحجر ٥٦/١٥)

وهناك أيضا علاقة وثيقة بين الجحود واليأس : فنكران نعمة الله دليل على غرور الانسان ، وهذا الغرور يعنى جهله بنفسه ، فيظن أنه قوى وهو ضعيف ، وأنه غنى عن الله ، وهو اليه فقير ٠ وهذا الغرور بالنفس يدل على عدم الثقة بالله واليأس من رحمته ٠ ومن ثم وردت آيات كثيرة يقترن فيها وصف الكافر بالجحود واليأس معا ، منها قوله تعالى :

« ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور ٠ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور ٠ الا الذين صبروا وعملوا الصالحات » (هود ٩/١١ ــ ١١) ٠

« واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤوسا قل كل يعمل على شاكلته » (الاسراء ٨٣/١٧ ــ ٨٤) ٠

والانسان المذكور فى الآيتين هو الانسان الكافر ، بدليل استثناء المؤمنين صراحة في الآية الأولى وضمنا فى الآية الثانية فى قوله تعـالى : « كل يعمل على شاكلته » ٠

٣ ـ الشــح

وهناك علاقة بين الشح وكفر النعمة ٠

فالمؤمن يشكر الله ؛ لأنه يوقن بأنه خالقه ورازقه ؛ ويوقن أن رزقه اياه لا يعنى رزقه بالمال فحسب ؛ بل يشمل ما أعطاه وأنعم عليه به من عقل سليم وجسم صحيح يقدر بها على التفكير والحركة ، والعمل والكسب ٠

كما يوقن المؤمن بأن شكر الله على هذه النعم يوجب عليه الانفاق منها حسب طبيعة كل نعمة (كما سبق من أن الانفاق ليس مقصورا على انفاق المال : فالعالم ينفق علما ، والطبيب علاجا ، كما ينفق الغنى مالا) ، وأن شكر الله على نعمة المال بوجه خاص يوجب عليه الانفاق منه على الفقراء والمحتاجين ، وأن هذا الانفاق ليس تفضلا عليهم ، بل هو حق لهم ، يؤديه اليهم من مال الله الذى آتاه ، وجعله مستخلفا فيه ٠

أما الكافر فجاحد ، ولذلك لا يقوم بواجب الشكر للمنعم ، ومن ثم لا ينفق مما رزقه الله (ولا سيما من ماله) فى سبيل الله بل يشح ويمنع ٠

يقول الله تعالى :

« ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (المعارج ٧٠/١٩ ـ ٢٥)

فهذه الآيات تبين أن الانسان الضال عن هدى الله يتصف بصفات منها الجزع عند الشدة ، والمنع عند الرخاء وواضح أنه الانسان الكافر ، بدليل استثناء المؤمنين الذين يحافظون على الصلاة ، ويؤدون من أموالهم حقوق الفقراء ٠

وقد سخر كفار مكة من فكرة الانفاق على الفقراء كما أخبرنا القرآن الكريم :

« واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » (يس ٣٦/٤٧) ٠

وكذلك كان منـافقو المدينة « **لا ينفقـون الا وهم كارهــون** » ٠

(**التوبة ٩/ ٥٤**) • بل قاموا بالدعوة الى منع الانفاق على المسلمين ليرغموهم على التخلي عن الاسلام :

« **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** » (**المنافقون ٦٣/٧**) •

وكان أول ما فعله المرتدون أنهم منعوا الزكاة •

وقد اشتهر كثير من الأحبار والرهبان بأكلهم أموال الناس بالباطل والتعامل بالربا ؛

كما قال الله تعالى :

« **ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** » (**التوبة ٩/٣٤**)

واشتهر اليهود بوجه خاص بـ

« **أخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل** » (**النساء ٤/١٦١**) •

وقصة قارون والمصير الذى لقيه جزاء شحه أشهر من أن نذكر وهى مصداق قوله تعالى :

« **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » (**الحشر ٥٩/٩**) •

٤ ـ الاسراف

قد يظن بعض الناس أن هناك تناقضا بين وصف الكافر بالشح والاسراف معا ، والحقيقة أنه لا تناقض •

فالكافر بخيل فى كل ما يتصل بالانفاق ـ فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ـ فى الوجوه التى حددها الاسلام لتحرير المجتمع الانسانى من الفقر والرق والحاجة بكل أنواعها • وهى الوجوه المذكورة فى آية الصدقات (التوبة ٩/٦٠)

ان الكافر قد ينفق فى بعض هذه الوجوه ، كالانفاق على الفقراء مثلا ، ولكنه لا ينفق عليهم لوجه الله ، بل لدوافع أخرى كثيرة ، قد تكون عنصرية أو قومية (ككونهم من بنى جنسه أو وطنه) أو سياسية (كمساعدة الغرب

للعالم الثالث !) أو اقتصادية (كخلق طبقة الغارمين فى الديون الربوية فى « العالم الثالث » والزعم بأن تقديم الديون الربوية كان لمساعدتها) أو مزيجا من هذه الدوافع جميعا .

وفيما عدا هذه الوجوه فالكافر مسرف فى الانفاق ، ولا سيما على حرب الاسلام والمسلمين والصد عن سبيل الله . ومن المعروف أن كفار هذا العصر من اليهود والصليبيين والشيوعيين ينفقون أموالا طائلة لهذا الغرض. وقد أنبأنا الله تبارك وتعالى بأن هذا الانفاق أن يعود عليهم بسوى الخسران: « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » (الأنفال ٣٦/٨) .

وللاسراف – فى القرآن – معان أخرى غير الاسراف فى انفاق المال. فمن معانيه الزيادة على قدر الاعتدال فى الطعام الشراب ، مخالفة لقوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الأعراف ٣١/٧) .

والكافر لا شك مسرف فى هذا المجال لأنه يتمتع ويأكل كما يأكل الحيوان ولأنه يأكل ويشرب الحرام ، ولأنه كافر بنعمة الله عليه بالطيبات.

ومن معانيه : المداومة على ارتكاب المعاصى والذنوب كقوله تعالى :

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » (الزمر ٥٣/٣٩) .

والمؤمن اذ ارتكب منها شيئا سارع الى التوبة كما قال تعالى :

« والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » (آل عمران ١٣٥/٣) .

أما الكافر فيستمر فيها،ويصر عليها لأنه لايشعر بالندم على ارتكابها، أو بالحاجة الى طلب غفرانها . ويظل كذلك طول حياته حتى تزهق نفسه وهو كافر !

ومن أهم معانى الاسراف : الافساد فى الأرض ، كما حكاه القرآن من قول صالح عليه السلام لقومه :

« فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » (الشعراء ٣٦/١٥٠-١٥٢) ٠

والافساد فى الأرض يشمل كل أنواع التخريب المادى والمعنوى للحياة الانسانية ولا سيما : اهلاك الحرث والنسل ، وارتكاب جرائم الظلم والقتل والفتنة عن الدين وقد وصف فرعون بأنه من « المفسدين » لارتكابه هذه الجرائم وذلك فى قوله تعالى :

« ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين »(القصص ٢٨/٤)٠

« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين » (يونس ١٠/٨٣)٠

وقد وصف اليهود فى القرآن بأنهم « مسرفون » ؛ وذلك لقتلهم النفس وافسادهم فى الأرض ٠ (المائدة ٥/٣٢)٠

وهذه المعانى كلها تدور حول معنى رئيسى واحد وهو :

الامعان فى مخالفة قانون الله فى الأمر والنهى ، والحلال والحرام ٠

٥ ـ الترف

الترف نوع من الاسراف ، أى مجاوزة قدر الضرورة والحاجة فى التمتع بطيبات الحياة الدنيا ٠ والترف لا يعنى حب المتاع المادى فحسب ، بل يعنى حب التنعم والرفاهية بكل الوسائل التى لا تتاح عادة الا لمن أتيحت لهم وفرة المال مع فراغ الوقت ، وفراغ العقل ، وفراغ الروح ، وموت الضمير ٠

وتتنوع هذه الوسائل بين وسائل مادية ، كاستعمال الفاخر من الطعام والأثاث والمسكن والملبس والمركب ، ووسائل « ترفيهية » كوسائل التسلية « وقتل الوقت » التى تمثل الثقافة المنحلة للطبقات الغنية فى المجتمعات الغربية (وغالبا ما تقلدها عندنا الطبقات الغنية « المسلمة ») من كتب ومجلات وأدب ساقط وأفلام وبرامج تدور غالبا حول الجنس والجريمة ، وتمجد « انجازات » الحضارة المادية الغربية ، متجاهلة دماء قتلاها وأنين ضحاياها فى كل مكان الى أسفار ورحلات لا هدف لها سوى

التسلية الرخيصة والمتعة المحرمة أو مجرد « قتل الوقت » الى حفلات تنفق فيها أموال طائلة لمناسبات تافهة غالبا ، بينما يموت الملايين من البشر جوعا ومرضا وتشريدا ٠

ولا شك أن هذا النوع من الحياة يشجع على انتشار الفساد في المجتمع كله فان الترف يشجع على الفسق والفحشاء ، فالمترفون لا يقتصرون على التمتع بالطيبات بل يتعدونها الى عمل الخبائث ، واتيان الفواحش ، وارتكاب المحرمات ، ويستعينون على هذا كله بأنواع كثيرة من المخدرات والمسكرات ، التي تؤدى غالبا الى انهيار الجسم والعقل معا ٠

فكيف يصلح هؤلاء لجهاد ؟ أو علم نافع ؟ أو عمل صالح ؟

ان مجتمعا هذا حال أفراده لا يمكن الا أن يتحلل وينهار ، كما قال الله تعالى :

« واذا أمرنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (الاسراء ١٧/١٦) ٠

ان الاسلام حين يحرم الترف بكل أنواعه يبنى المجتمع من شخصيات جادة ، تتجنب الترف والأمراض التى يورثها (كحب الدعة والرخاوة والميوعة وشيوع الفاحشة وتبلد الاحساس وسقوط الهمم) وتتحمل مشقات الأعمال العظيمة الصالحة التى يتطلبها الاسلام ٠

ولا شك أن احتمال نوع المشقة والخشونة ضرورى لتقدم أى مجتمع :

فكبار العلماء اذ يتفرغون للعلم والبحث لا بد أن يعتزلوا حياة اللهو ويحتملوا كثيرا من العناء٠وبدون هذه الحياة الجادة لايكون علم ولا علماء٠

والدعاة الى الله لابد أن يوطنوا أنفسهم على حياة الشدائد والمحن ولا يمكن أن يكون المترف داعية حقيقيا بل تاجرا من تجار الدين ٠

وقد كان حب الترف من أهم الأسباب التى حملت أغنياء الكفار في كل العصور على رفض هدى الله ٠ لأن هذا الهدى يحول بينهم وبين ما يشتهون يقول الله تعالى :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون ٠ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ٠ قل ان ربى

يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٠ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون» (سبا ٣٤/٣٤-٣٧)٠

وفى هذه الآيات نرى العقلية المادية الكافرة على حقيقتها : تفتخر بالأموال والأولاد ، فذلك مقياسها المادى للتفوق والامتياز ٠ وهذا المقياس هو نقطة من أهم نقاط الصراع بين الاسلام والكفر ، فالاسلام لا يقيم وزنا للأموال والأولاد الا على أنها وسائل تعين المؤمن على العمل الصالح ٠

وتتضح هذه العقلية الماديه أيضا فى تشتيت الكافرين بهذه الحياة الدنيا ونهمهم على متاعها ، لأنها عندهم نهاية المطاف ، وما بعد العشية من عرار ، **ولذلك ينكرون ما وراءها من بعث وحساب :**

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذن لخاسرون ٠ أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ٠ هيهات هيهات لما توعدون ٠ ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (المؤمنون ٢٣/٣٣-٣٧)

وقد كان معظم كفار مكة من هذه الطبقة المترفة « أولى النعمة » **كما قال تعالى :**

« وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » (المزمل ٧٣/١١)٠

ويشير القرآن الى أن أولاد الكفار ينشأون فى بيئة مترفة فيقلدون آباءهم فى الترف والكفر معا :

« وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (الزخرف ٤٣/٢٣) ٠

٦ ـ الغرور

سبقت الاشارة الى أن الانسان الغربى الحديث ـ تحت تأثير الحضارة المادية ـ قد بلغ به الغرور الى حد انكار وجود الله ، وقطع كل صلة بين الانسان وخالقه ، واتخاذ الانسان الهه هواه ، وأن من أهم

العوامل فى هذا الغرور احساس الغربى بتقدمه المـادى فى العلـوم، والتكنولوجيا ؛ واحرازه لأسباب القوة المادية ولا سيما السلطة والثروة ·

والغرور صفة أساسية ؛ من صفات الكافر ؛ تكمن فى أعماق نفسه ؛ وتظهر بأوضح صورها عند القدرة ؛ أى عند تمكنه من السلطة والثروة · وكلما زادت قدرته زاد غروره واستفحل طغيانه ؛ ولذلك يصل غروره الى القمة عندما يصل هو الى قمة الحكم ·

وأوضح من يمثل هذه الصفة فى القرآن هو فرعون :

« ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » (الزخرف ٥١/٤٣) ·

وهذا الادعاء المغرور بأن له ملك مصر وأرضها يمثل نفسية كـل كافر ، وهى تلك النفسية التى تعتز بتملك المادة اعتزازا شديدا ، لأنها تحرص دائما على الدنيا وتحب متاعها حبا جما · ومن ثم يعشق كـل ما تجلبه السلطة والثروة من مظاهر كاذبة ومزايا خادعة : كأبهة الملك ، وزينة المواكب ، وقوة الجيوش ، وترف القصور ، والاستمتاع الفاجـر بكل أنواع المتع والاستعلاء الوقح على عباد الله ·

ومن يدرس تاريخ الامبراطوريات الكافرة يجد هذه الظواهر واضحة فى أباطرتها وطبقاتها الحاكمة · ويظن المخـدوعون انهـا مظاهر قوة حقيقية ، والواقع أنها عوامل ضعف وانحلال تؤدى فى النهاية الى سقوط الامبراطوريات وانهيارها ، كمـا حدث للامبراطوريات « الفرعونيـة » كلها : من مصرية وفارسية ورومانية وبريطانية ·

ولم يكتف فرعون بأن يدعى ملك مصر بل ادعى الألوهية :

« فقال : أنا ربكم الأعلى » (النازعات ٢٤/٧٩) ·

وقال : « ما علمت لكم من اله غيرى » (القصص ٣٨/٢٨) ·

وهذا السلوك المغرور من الحاكم الكافر يدل على أنه يعتقد أن الملك له ، والمال ماله ، والأرض أرضه ، والناس عبيده ، ولذلك يصم أذنيه عن كلمة الحق وهى أن الملك والمال والأرض لله وحده وأنه مستخلف فيها جميعا الى أجل مسمى ، وأنه مسئول كغيره من عباد الله عن كل ما يعمل ، ولا يتميز عنهم بشىء سوى أن مسئوليته أكبر ووزره أثقل :

« **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ٠ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** » (يونس ١٠/١٣ ــ ١٤) ٠

٧ ــ الطغيان

وهذا الغرور سرعان ما يتطور ــ ولا سيما عند الحاكم الكافر بل وكل انسان بيده سلطة أو ثروة يستعملها على أنه مالك حقيقى لا مستخلف ــ الى طغيان يتمثل فى استعمال السلطة والثروة لا لحكم الناس بالعدل والاحسان ، واعلاء كلمة الله ، بل لتعظيم نفسه وارضاء غروره ، واشباع شهواته ، واتباع هواه ٠

ويترتب على هذا أن يظلم الناس ، ويأكل أموالهم بالباطل ، بل ويستعبدهم ويقتلهم كلما استطاع ، ولا سيما أولئك الذين يجرؤون على نصحه ، أو مقاومة طغيانه ٠

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تصف طغيان فرعون واتخاذه الحكم وسيلة الى العلو فى الأرض والافساد فيها ، واستعباد الناس وقتلهم ٠

« **ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين** » (القصص ٢٨/٤)

وقد كان هذا الطغيان سببا فى صد كثير من الناس عن الايمان بالله وبرسالته الى موسى عليه السلام ٠ وحتى القلة التى آمنت به كانت تعيش فى رعب دائم من فرعون وأعوانه :

« **فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين** » (يونس ١٠/٨٣)

ولذلك وصف القرآن حياة بنى اسرائيل تحت حكم فرعون بأنها :

« عذاب مهين » و « بلاء عظيم » ٠ وقد نجاهم الله من هذا العذاب بخروجهم من سلطان حكمه جملة ، أى بخروجهم من مصر ، وكان ذلك من أكبر نعم الله عليهم :

« **ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين من فرعون انه كان عاليا من المسرفين** » (الدخان ٤٤/٣٠ ــ ٣١)

وبسبب هذا الطغيان الكافر وصف القرآن حكم فرعون **بأنه غير** رشيد ، فقد استخدم انحكم بكل سلطاته فى اضلال قومه عن هدى الله ، ومن ثم استحق أن يكون « قائدهم » الى النار .

« **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** » (هود ٩٦/١١ — ٩٨)

وقد دعا موسى ربه أن يسلب فرعون السلطة والثروة لأنه وأعوانه استخدموها فى اضلال الناس وصدهم عن سبيل الله :

« **وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** » (**يونس ٨٨/١٠**)

٨ — موالاة الكفار ومعاداة المسلمين

كل من أعرض عن هدى الله فان الشيطان يولع بصحبته ويتخذه وليا ، كما قال تعالى :

« **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين** » (**الزخرف ٣٦/٤٣**) .

وكما قال سبحانه : « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » (الأعراف ٢٧/٧) .

وهذه الصحبة يستغلها الشيطان فى تزيين الشر لأوليائه ، كما زين لكفار مكة مثلا أن يدخلوا معركة بدر ، ومناهم بالانتصار فيها ، فلما بدأت المعركة تخلى عنهم ، وتبرأ منهم « **واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال : انى برئ منكم انى أرى ما لا ترون** » (**الأنفال ٤٨/٨**) .

ومن صفات الكافر بوجه عام أن الشر يزين له فيراه خيرا ، والعمل السيء يزين له فيراه حسنا ، ولذلك يأتى من الأعمال شرها ، ويرتكب من الجرائم أقبحها ، رغم أنه يشعر فى قرارة نفسه بما فيها من شر وقبح ، وذلك لأن « تزيين » الفعل يجعله « يبدو » له جميلا ، وهو ليس كذلك . والتعبير القرآنى الرائع « زين » و « زين » يوحى بان الفعل الشرير جعل

جذابا ومغريا ، لا بطبيعته وخصائصه الذاتية ، بل بتأثير عوامل خارجية خداعة ، ومن أهمها افلاس الكافر من المقاييس الحقيقية للخير والشر ، بسبب رفضه لمصدر هذه المقاييس وهو هدى الله ، وكذلك ضعف مقاومته لاغراء الشر بسبب خضوعه لهواه .

ومن ثم يمضى الكافر فى أعماله وجرائمه ويمعن فيها ، غير آبه بنصح أو تحذير أو انذار ، ولا متدبر لعواقبها الحتمية الوخيمة ، حتى تؤول به الى الخسران المبين .

وقد وصف فرعون بهذه الصفة فى القرآن ، فقال تعالى :

« وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل » (غافر ٤٠/ ٣٧) .

كما وصف بها غيره من الكفار فقال تعالى :

« كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (الأنعام ١٢٢/٦) .

كما نبه القرآن الى الخسران المترتب عليها ؛ فقال تعالى :

«قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (الكهف ١٨/ ١٠٣-١٠٤) .

ولما كان الكفار يمثلون حزب الشيطان كما قال الله تعالى :

« استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون » (المجادلة ٥٨/ ١٩) .

وكان حزب الشيطان هو حزب الشر ــ فلا شك أن الأشرار يوالى بعضهم بعضا كما قال تعالى :

« والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » (الأنفال ٨/ ٧٣) .

وكما قال سبحانه :

« وان الظالمين بعضهم أولياء بعض » (الجاثية ٤٥/ ١٩) .

واشتراكهم فى الشر والكفر يجعلهم يتحالفون جميعا على عداوة دين الهدى والخير ، أى على عداوة الاسلام والمسلمين . وقد أخبرنا الله بعداوتهم للمؤمنين فقال تعالى :

« ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا » (النساء ٤/ ١٠١) .

ولذلك حذرنا من موالاتهم فقال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » (الممتحنة ٦٠/١) ·

وهذه العداوة الحاقدة هى التى تجمع فى عصرنا الحاضر بين أعداء الاسلام جميعا ، رغم ما بينهم من خلافات ·

فهى التى تجمع بين الشيوعيين الملاحدة ، والرأسماليين اليهود والنصارى ، والهنود الوثنيين ، والمنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء · كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكفر ملة واحدة » ·

ومن أهم أهداف الكافرين أن يردوا المؤمنين عن دينهم كما قال تعالى :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (البقرة ٢/٢١٧) ·

ومحاولة الكافرين أن يردوا المؤمنين عن دينهم حقيقة واضحة فى عصرنا تؤيدها مؤامرات الدول الكافرة – من صليبية وصهيونية وشيوعية – ومؤسساتها ، لتحقيق ذلك الهدف الخبيث ؛ ولا سيما عن طريق التنصير والاستشراق ·

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» (الصف ٦١/٨) ·

٩ – المكر السيء

وصف مكر الكافرين فى القرآن بأنه مكر السيء ، أى أنه تخطيط شرير للقضاء على الاسلام والمسلمين ·

ومن أوضح أمثلته تخطيط كفار مكة للقضاء على الاسلام بالقضاء على النبى صلى الله عليه وسلم وذلك بحبسه أو قتله أو نفيه ، وقد حبطت مؤامرتهم ، وانتهت الى نتائج عكسية ، اذ كان من تدبير الله تعالى أن تتم الهجرة ، وعن طريقها يتمكن الاسلام فى الأرض ويزداد انتشارا · وهذا التدبير الالهى هو ما يعبر عنه القرآن بمكر الله ، أى تدبير الله لاحباط مؤامرات الكافرين بطريقة لا يتوقعونها :

« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (الأنفال ٨/٣٠) ·

ولم تكن تلك هى المؤامرة الوحيدة ، بل كانت مؤامرات الكفار (من المشركين اليهود المنافقين) تلاحقه صلى الله عليه وسلم طوال بعثته ، وكان يحزن عليهم ، ويضيق بمكرهم ، ولكنه كان يجد العزاء من الله تعالى :

« واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون » (النحل ١٦/١٢٧) ٠

وتاريخ الأنبياء يثبت أنهم كانوا جميعا هدفا لمؤامرات كافرة يخططها عتاة المجرمين :

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا » (الفرقان ٢٥/٣١)

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » (الأنعام ٦/١١٢) ٠

وكذلك كان الدعاة والمصلحون والمجددون فى الاسلام هدفا لسلسلة متلاحقة من المؤامرات الكافرة على دعوتهم ، ومن ثم على شخصياتهم ، وذلك لأن أعداء الله فى كل عصر يخشون الاسلام على ما يسمونه « مصالحهم » ٠

والواقع أن « مصالحهم » هذه ما هى الا مطامعهم الجائرة وشهواتهم الفاجرة التى لا يمكن أن تتحقق الا فى غيبة الاسلام وغيبة دعاته ٠

ومكر الكافرين — كما أشرنا من قبل — ينبع من عداوتهم للاسلام ٠ ولما كانت عداوتهم له شديدة كان مكرهم به وبأتباعه شديدا كما وصفه الله تعالى :

« وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال » (ابراهيم ١٤/٤٦) ٠

ويمكن أن يقسم مكر الكافرين بحسب وسائله الى نوعين :

(أ) الحرب السافرة :

أى محاولة القضاء على الاسلام عن طريق التصفية المادية للمسلمين بوسائل مادية : كقتل زعمائهم ، أو ابادة جماعات كبيرة منهم ، واحتلال أراضيهم أو اخراجهم من ديارهم أو استعمارهم ونهب ثرواتهم ٠ وهذه الوسائل متلازمة ، ولذلك كثيرا ما يلجئون اليها جميعا ٠ ولهذا كله أمثلة معروفة مشهورة فى عصرنا ولا سيما فى فلسطين والجزائر ومصر والسودان والصومال ونيجيريا والفلبين والهند وافغانستان ٠

(ب) الفتنــــة :

أى محاولة القضاء على الاســلام بتحويل المسلمين عنــه بوسائل « سليمة » ، من أهمها وسائل الثقافة والتربية والاعلام • وتتمثل هذه « الفتنة » بوضــوح فى مؤامرات الغزو الثقــافى والردة التى يقــوم بها الصليبيون والصهيونيون والشيوعيون على أيدى المستشرقين والمبشرين والعلمانيين والملحدين لتحويل المسلمين عن دينهم •

ولا شك أن هذا النوع من المكر أشد خطرا على الاسلام والمسلمين من الحرب السافرة و « **الفتنة أكبر من القتــل** » (**البقرة ٢/٢١٧**) • وقد ثبت نجاحه وفعاليته فى « ابادة » أجيال كاملة من المسلمين بتحويلهم « سلميا » عن الاسلام ، وذلك بتغييرهم نفسيا وعقليا حتى يزول كــل ما « يميزهم » كمسلمين ، وتنمحى كل خصائص شخصيتهم الاسلامية ، فيصبحوا والكافرين سواء ، كما قال الله تعالى :

« **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** » (**النساء ٤/٨٩**) •

وبهذه الوسائل الخبيثة استطاع أعداء الاســلام فى عصرنــا أن يحكموا كل الشعوب الاسلامية تقريبا بواسطة تلاميذهم وعمــلائهم من « المسلمين » الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين •

يقول الاستاذ سعيد حوى (١) : « فى كل قطر اسلامى مؤسسات كافرة أو عميلة ضخمة جدا يصعب على الانسان تصور حجمها ولا تعرف عنها الا القليل • نشرت الصحف ونشر هذا فى كتاب « ايلى كوهين من جديد » وذكر عبد السلام عارف أثناء حكمه للعراق أن عدد العراقيين التابعين لجهاز المخابرات البريطانية فى العراق يبلغ ثلاثة وثلاثين ألفا • ونقل بعض من يتتبع مثل هذه القضايا أن قريبا من هذا الرقم يشتغل فى منطقة الشرق الأوسط تابعين للمخابرات الأمريكية » •

ثم تأتيك فى كل قطر التنظيمات الشيوعية ، والمحافل الماسونية ، والمدارس والمؤسسات التبشيرية ، والأحــزاب الوطنيــة والقوميــة والزعامات الشخصية ، والمؤسسات الثقافية والتوجيهية • وكل هــذه تمثل غالبا عمالة فكرية أو سياسية للكافرين ، ووراء كل منهــا من يغذيها •

ثم تأتيك الأقليات فى الاقطار الاسلامية ، والتى يحاول كل كافر أن يسخرها لمآربه • ثم يأتيك الجيل الذى خرجه هؤلاء جميعا وأمثالهم والذى يتطوع أحيانا ليؤدى دور هؤلاء بكل حماسة أثناء غيابهم • ثم

---

(١) جند الله ثقافة وأخلاقا : ص ١١ ــ ١٢ (باختصار) •

يأتيك أعتى هؤلاء جميعا وأكثرهم خبثا : الصهيونية العالمية والقوى التى تعمل لصالح اليهودية فى كل مكان ٠

وعلى هذا فقد وضع لنا فى أرضنا قوى عاتية فروعها فى أرضنا وجذورها فى الخارج ٠

ولا شك أن لكل هذا صلة وثيقة بانتشار ظاهرة الردة فى نظم ومؤسسات العالم الاسلامى كله تقريبا ٠ وكان من نتائج هذه الردة ـ كما يقرر الأستاذ سعيد حوى(١) ـ أن انحسر الاسلام عن الحياة انحسارا تاما تقريبا : انحسر نظامه السياسى وانحسر مفهومه عن الأمة ليحل محله مفهوم القومية وانحسر مفهومه عن الوطن وعن القضاء وانحسرت تشريعاته، وانحسر مفهومه عن الشورى لتحل محله مفاهيم الديمقراطية الشرقية أو الغربية ، وانحسر مفهومه عن السلطة التنفيذية ، والحزبيـــة الربانية ، وانحسر نظامه الاجتمــاعى ، وانحسر مفهومــه عن الأسرة والتربيـــة الأسرية وعن العلاقات الاجتماعية التى تربط بين الناس ، وعن العلاقة بين الرجل والمرأة ، وانحسر نظامه العسكرى ومفهومه عن الجهاد ، كما انحسر نظامه التعليمى ومفهومه عن فروض الكفاية والعلوم المفروضـــة والمكروهة والمباحة ؛ ومفهومه عن التربية والتعليم ؛ وكذلك انحسر نظامه الاخلاقى » ٠

وبالرغم من كل ذلك فالأستاذ سعيد لا يحكم على المجتمعات الاسلامية بأنها كافرة ؛ بل بأنها « مجتمعات فاسقة محكومة فى الغالب بمرتدين أو منافقين أو كافرين ٠ وما نظن أن انسانا يفهم الاسلام يهوله هــــذا الحكم (٢) » ٠

ولكن اذا وجد « المؤمنون حقا » ٠

فان كيد الكافرين لابد أن يرتد الى نحورهم :

« **ولا يحيق المكر السيء الا بأهله** » (**فاطر ٣٥/٤٣**) ٠

« **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور** » (٣٥/١٠) ٠

ومعنى هذا ألا يقف المؤمنون (اذا كانوا مؤمنين حقا) متفرجين

---

(١) المرجع السابق ص ٩ ـ ١٠ ٠
(٢) السابق ص ١٠ ٠

حتى يحيق المكر السيء بأهله . فلا يمكن أن يتحقق الانتصار في أي صراع بدون ابتلاء الله للمؤمنين حتى يبذلوا كل جهدهم في هذا الصراع ، فلا انتصار — حتى للمؤمنين — بدون جهد . وذلك هو قانون الصراع البشرى الذى قرره القرآن الكريم :

« ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (محمد ٤/٤٧) .

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » (٣١/٤٧) .

فالمكر السيء ينبغي أن يواجهه المسلمون بمكر حسن ، أى بالتخطيط الاسلامى الذى يجب أن يشمل :

١ — دراسات موضوعية لكل مخططات « الفتنة » ووسائلها ومؤسساتها ، ولا سيما فى ميادين الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى فى المدارس والجامعات .

٢ — نشر هذه الدراسات بين المسلمين ، لفضح مخططات الكفر ، وتوعية المسلمين بخطرها ، ووسائل توقى شرها .

٣ — مواجهة تلك المخططات بالبدائل الاسلامية . واستعمال هذه البدائل ولا سيما فى التربية سيثبت انها أنفع للمسلمين .

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (الرعد ١٣/١٧) .

المكر بالنفس :

المكر السيء — ككل الصفات النفسية الشريرة — لا بد أن يعود بالشر على صاحبه . وهذا نوع من عقاب الفطرة لكل انسان يخالف دين الفطرة . فأكابر المجرمين المتآمرين على الأخيار فى أى مجتمع يحيون فى الحقيقة حياة لا يحسدون عليها . لأن طبيعة التآمر تفرض عليهم كثيرا من ألوان التصنع والخداع ، وتورثهم كثيرا من أنواع الخوف والقلق ، فهى ليست حياة طبيعية أو آمنة ، وكثيرا ما تنتهى نهاية مأساوية بالجنون أو الانتحار . وكل ذلك دليل على أن المكر السيء بالغير هو فى الحقيقة مكر بالنفس كما قال تعالى :

« وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيهــا وما يمكرون الا بأنفسهم » (الأنعام ٦/١٢٣) .

١٠ ـ الواقعية المادية

الايمان بالواقع المادى صفة أساسية من صفات الكافر .

وهى نتيجة طبيعية مترتبة على حبه للعاجلة وكفره بالغيب .

فالكافر ـ كما أشرنا من قبل ـ ذو عقلية مادية مغرقة فى المادية ، وذلك بحكم انكاره لكل المفاهيم والقيم الربانية والروحانية التى لا ترى ولا تلمس باليد ، لأنها تنتمى جميعا الى عالم الغيب : كوجــود الروح وخلودها وسموها على المادة ، وحتمية البعث والحساب والجزاء ، أى حتمية المسئولية الانسانية أمام احكم الحاكمين .

والكافر بحكم هذه العقلية المادية لا يؤمن الا بما يرى وجــوده ، ويحس أثره المباشر على حياته فى هذه الدنيا . اما نفعا عاجلا ، أو خطرا داهما . أى انه لا يؤمن الا بما يسمى (الأمر الواقع) .

وهذه الصفة تفسر لنا لماذا يقدم الكافر (أو « المسلم » ذو العقلية الكافرة) على كثير من أفعال الشر والظلم . فهو وان تصور أحيانا آثارها السيئة وعواقبها الوخيمة ـ فانه يرى تلك الآثار والعواقب بعيدة وغــير محققة الوقوع . وهذا أحد الأسباب فى أن الكفار كانوا يستبعدون اليوم الآخر وهو يوم مسئوليتهم عن أعمالهم ، كما قال تعالى :

« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » (المعارج ٧٠/٦ ـ ٧) .

ولذلك يمعن الكافر فى أفعال الشر والظلم ، متوهما ـ وبخاصة اذا كان بيده سلطة ومال ـ أنه بمأمن من أن يحيق به مكره ، وأن يرتد اليه كيده .

ويظل الكافر هكذا حتى يرى بعينيه أن ساعة القصاص قد دنت وأنه من عقاب الله لن يفلت ، فان الله يمهل ولا يهمل ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله ليملى للظالم فاذا أخذه لم يفلته » (متفق عليه) .

وعندئذ فقط تتبدد غشاوة كفره و « يؤمن » بالأمر الواقع وهــو

العذاب . ومن ثم كان الكفار يستعجلون عذاب الله ، ولكنهم لم «يؤمنوا» حتى حل بهم ، أى بعد فوات الأوان كما قال الله تعالى :

« قل أرأيتم ان اتاكم عذابه بياتا او نهـارا ماذا يستعجل منـه المجرمون . أثم اذا ما وقع آمنتم به ءالآن وقد كنتم به تستعجلون » (يونس ١٠/٥٠ - ٥١) .

وكما قال تعالى :

« ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تاتيهم الساعة بغتة او ياتيهم عذاب يوم عقيم » (الحج ٢٢/٥٥) .

وذلك ما فعله فرعون فآمن حين رأى بعينيه خطر الموت :

« حتى اذا ادركه الغرق قال : آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين . ءالآن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين» (يونس ١٠/٩٠ - ٩١) .

ومن الواضح أن ايمانه كاذب ، لأنه ايمان فرضته الظروف ولذلك سرعان ما تعود النفس الكافرة - وهى نفس لئيمة - الى الكفر والشر بمجرد زوال الخطر :

« ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » (الأنعام ٦/٢٨).

وهذه العقلية الكافرة تنعكس فى سياسة « الأمر الواقـع » التى تنتهجها الدول الكافرة فى هذا العصر .

ومقتضى هذه السياسة حمل الناس بالقوة (وبخاصة المسلمين) على الرضوخ للواقع والرضى به مهما كان شرا وظلما .

وهذه السياسة لا تصطدم بمبدأ واحد أو بضعة مبادىء فى الاسلام، بل تصطدم بكيان الاسلام كله . بل ن الاسلام فى جوهره ثورة دائمة على الشر والظلم ، وبخاصة اذا أصبحا أمرا واقعا . ففى هذه الحالة يفرض الاسلام بذل أقصى ما فى طاقة كل مسلم لتغيير هذا الواقع .

ومثال ذلك أن العدوان على دار الاسلام ما دام محتمل الوقوع فالجهاد فرض كفاية ، فاذا تحقق العدوان بالفعل أصبح الجهاد فرض عين .

والمبدأ العام فى هذه القضية قد قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث » (المائدة ٥/١٠٠) ٠

فليس فى الاسلام مبرر ـ عقلى أو أخلاقى ـ للخبيث ، حتى بكثرة وجوده ، فضلا عن مجرد وجوده ٠ وذلك لأن الشر والخير لا يستويان ، لا فى حكم العقل ولا فى ميزان الأخلاق ٠

وقد أشار القرآن الكريم الى أن الحكم بالمساواة بين الأشرار والأخيار هو عند العقل حكم واضح الشناعة ، مرفوض بالبداهة :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون » (الجاثية ٤٥/٢١)

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ » (القلم ٦٨/٣٥ ـ ٣٦) ٠

« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون » (السجدة ٣٢/١٨) ٠

ولذلك كان من أهم أهداف الجهاد فى الاسلام أن يندحر الكفر لأنه شر وينتصر الايمان لأنه خير :

« ليميز الله الخبيث من الطيب » (الأنفال ٨/٣٧) ٠

ومن ثم كان الجهاد فريضة ماضية الى يوم القيامة ، لا يجوز للمؤمنين أن يتخلوا عنها :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » (آل عمران ٣/١٧٩) ٠

وتنعكس هذه العقلية الكافرة كذلك فى الفلسفة المادية الشيوعية اذ تقوم هذه الفلسفة كما هو معروف على أن الانتاج المادى وحده هو الذى يتحكم فى الانسان ، وفى تطوره الفكرى والخلقى والسياسى والاجتماعى ٠ ومن ثم تنكر وجود الله ووجود الروح وكل عالم الغيب ، كما تنكر الدين جملة وتدعوه « مخدر الجماهير وأفيون الشعوب » وكذلك تنكر كل القيم

الروحية والمثل الخلقية العليا للانسان ، وتهبط به الى حضيض الحيوان ، الذى يعيش ليأكل ويأكل ليموت .

« وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » (الأنعام ٢٩/٦) .

ولا عجب بعد هذا أن تكون هذه الفلسفة الكافرة من نتاج يهودى ، اسمه كارل ماركس .

أسباب اضلال الكافر

هى أسباب كثيرة ومترابطة ، ونقتصر منها على سببين رئيسيين وهما :
اتباع الهوى ، وحب العاجلة ٠

اتباع الهوى :

الهوى بايجاز هو كل ما تحبه النفس من شهوات الدنيا ، وما تكرهه من آلام الابتلاء فيها ٠ واتباع الهوى مرتبط ارتباطا وثيقا برفض هدى الله ٠

لأن الذى يتبع هواه ، يفعل ما تحبه نفسه ، مهما كان وخيم العواقب ، ويتجنب ما تكرهه مهما كان محمود العواقب ٠ وذلك لأنه لا يحكّم هدى الله فيما يأتى وفيما يدع من أفعال ٠ وهدى الله يقول لنا :

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة ٢/٢١٦) ٠

فالحب أو الكره بدون ضابط من هدى الله ليس مقياسا مطلقا لخيرية الأفعال أو شرها ٠

فمن الواضح من ملاحظتنا اليومية أن الطفل مثلا لو ترك مخلى هواه بدون تأديب أو تربية فانه يقدم على أفعال كثيرة تضره ولا تنفعه ، كأن يسرف فى أكل الحلوى أو يسرقها أو يخطفها ، لأنه يجدها لذيذة !

وليس الأمر مقصورا على الأطفال ، فذلك ما يفعله « الكبار » ، أيضا : كالزناة واللصوص وشاربى الخمر ٠ أليس الزانى يندفع وراء الفاحشة لأنه يجدها لذيذة ؟ وكذلك اللص وراء المال والسكير وراء الخمر ؟ فكل من هؤلاء لا يندفع لارتكاب جريمته الا لأنه اطلق العنان لشهواته واهوائه بلا ضابط من هدى الله ٠

وقد أشرنا من قبل الى أن الهدى مترتب على الايمان ، فمن لا ايمان

له اطلاقا كالكافر ، أو من ايمانه غائب أو معلق كالمسلم العاصى ، لا يحكم هدى الله في هواه · يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن » (متفق عليه) ·

ومعناه – والله أعلم – أن الكافر يرتكب هذه الآثام لأنه لا ايمان له ، والمسلم يرتكبها حين يكون ايمانه فى حالة غياب «Absence» أو تعليق «Suspense»

وفى هذه الحالات لا « يستحضر » متبع الهوى هدى الله ، بل يذهل عن ذكره ويغفل عن تعاليمه ، فيفقد نوره ، فيتخبط فى ظلمات الاثم ·

ومن أهم الأسباب التى تحمل الكفرة الفجرة على رفض الاسلام أنه يحول بينهم وبين ما يشتهون ، فيحرم ما تتحرق اليه دائما نفوسهم المنهومة ، وأهواؤهم الدنسة · فالاسلام مثلا يحرم الزنى وكل أنواع الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن · وهم يريدون اتباع شهواتهم بلا حدود ولا قيود اشباعا حيوانيا كما قال تعالى عنهم :

« **يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام** » (**محمد ٤٧/١٢**) ·

والاسلام يحرم الربا والانسان الكافر يريد أن يثرى بأية وسيلة ولو على حساب استغلال أخيه الانسان ، ولذلك يحل ما حرم الله ، ارضاء لشهواته واتباعا لهواه ؛ كما أحل الكفار الربا قديما وحديثا ؛ اتباعا لشح أنفسهم ؛ وقصدا الى تضخم ثرواتهم ؛ وحاولوا تبرير ذلك كما قال تعالى :

« **ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا** » (**البقرة ٢/٢٧٥**) ·

حب العاجلة :

حب العاجلة مفهوم قرآنى متعدد الأبعاد :

فهو يصف لنا الطابع المادى للشخصية الكافرة ؛ تلك الشخصية التى لا تدرك الا ما هو محسوس لها ؛ قريب منها ؛ فى الزمان أو فى المكان ؛ ولا تشعر (وان شعرت فلا تهتم) الا بما له تأثير مادى مباشر عليها · فهى لا تؤمن الا بما هو مادى ملموس وتنكر ما وراء ذلك · ثم لديها نهم

دائم لا يشبع لتلك الأشياء المادية التى يسميها القرآن « **متاع الحياة الدنيا** » (آل عمران ٣/١٤) ؛ كالنساء والأولاد والأموال ، ولذلك تتعجل دائما الحصول عليها من أقصر طريق ، وبأية وسيلة ٠

وهذا التعجل من طبيعة الانسان بوجه عام كما قال تعالى :

« **خلق الانسان من عجل** » (**الأنبياء ٢١/٣٧**) ٠

« **وكان الانسان عجولا** » « **الاسراء ١٧/١١**) ٠

ولكن شخصية المسلم يهذبها الاسلام ، فتهتدى بهدى الله وبرسوله وتتأدب بأدب القرآن والسنة ، ولذلك لا تتطلب محرما فضلا عن أن تتعجله ؛ وحتى الحلال تطلبه ولكن تجمل فى الطلب ٠

وقد أخبرنا الله تعالى أن من أسباب تعجل الانسان لشهوات الدنيا انها زينت له لتغريه بها ، وذلك نوع من الابتلاء لتمييز المؤمن من الكافر :

(**انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** » (**الكهف ١٨/٧**) ٠

فتزيين الدنيا للناس هو ابتلاء من الله لهم ، وبه يتبين الفرق بين المخدوعين بزينتها والعارفين بحقيقتها ، وينعكس هذا الفرق فى أعمال كل منهما ٠

فأما المخدوعون فيترامون عليها ويتهالكون على متاعها ، وتصبح حياتهم سباقا محموما متصلا يؤدى بسكينة أنفسهم ، ولا يوقفه الا الموت ؛ كما يصبح جوعهم الى الدنيا نهما لا يشبعه الا التراب ، بل تصبح الدنيا عندهم غاية فى ذاتها ، وليست وسيلة الى الآخرة ، كما قال تعالى عنهم :

« **ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا** » (**الانسان** ٧٦/٢٧) ٠

ومن فرط حبهم للدنيا ينكرون الآخرة ولا يريدونها :

« **ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** » (**المؤمنون** ٢٣/٣٧) ٠

وأما العارفون بحقيقتها فيتمتعون بطيباتها ، ومن أفضل متعهم فيها شغل أوقاتهم فيها بأعمال صالحة تحمل طابع العبادة لله ، والرضى بقضائه ، والتزود للقائه ، ومن ثم يحيون « الحياة الطيبة » الحافلة

بالنشاط الخير ، والعمل الصالح ، وبهذا تتحقق لهم السكينة النفسية : لأنهم اتخذوا الموقف الصحيح من الدنيا ؛ فخلت نفوسهم من القلق على متاعها ؛ ومن الناس ؛ فآثروا ما عند الله على ما عند الناس ٠

ويبين الطابع المادي للشخصية الكافرة من جانب آخر وهو الارتباط الوثيق بين عبادة الأوثان وعبادة المادة ٠

فمن أسباب عبادة الأوثان أو مظاهر الطبيعة ، أن الكافر يراها ويشعر بوجودها المادى ، ويلمس آثارها ــ الحقيقية أو الموهومة ــ على حياته ٠

ومن أسباب كفره بالله تعالى أنه لا يدركه باللمس ولا يراه بالعين٠ ولذلك قال اليهود ذوو العقلية المادية لموسى عليه السلام :

« لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » (البقرة ٢/٥٥) ٠

ولما غاب عنهم موسى عليه السلام اتخذوا لهم الها :

« من حليهم عجلا جسدا له خوار » (الأعراف ٧/١٤٨) :

أى الها ماديا له جسد يرونه ويلمسونه ، وصوت يسمعونه ، وهو مصنوع من الذهب اله الماديين فى كل زمان ومكان ٠

وكذلك فان من أسباب انكار الكافرين لليوم الآخر أنه ليس مشهودا لهم ولا قريبا منهم ، ولذلك « **يرونه بعيدا** » (**المعارج ٧٠/٦**) ٠

فالكافر ــ كما سبق القول ــ لا يؤمن بالغيب وانما يؤمن بالأمر الواقع ٠

وقد أشار القرآن الى هذين السببين ــ وهما اتباع الهوى وحب العاجلة ــ فى آيات عديدة منها قوله تعالى :

« فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » (القصص ٢٨/٥٠) ٠

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (ص ٣٨/٢٦) ٠

« يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (الأنعام ٦/١٣٠) .

« ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين » (النحل ١٦/١٠٧) .

نماذج قرآنية لشخصية الكافر

فيما يلى اشارات موجزة لبعض هذه النماذج (١) :

١ ــ **فرعون :** فى شخصيته تتجسد صفات الكافر عندما يحكم ، ولا سيما الغرور والطغيان ، والافساد فى الأرض ، والمكر السىء ، وعداوة المؤمنين ، والعقلية المادية الكافرة التى لا يؤمن صاحبها حتى يدركه الموت كما سبق بيانه ٠

٢ ــ **قارون :** يمثل شخصية الكافر الذى « **يطغى أن رآه استغنى** » (العلق ٩٦/٦ ــ ٧) ٠ فقد استغنى قارون واغتر بكثرة ماله ، وقال : « انما أوتيته على علم عندى » ٠ واستعبده المال فشحت به نفسه على الفقراء والمحتاجين ، فلم يحسن اليهم كما أحسن الله اليه ، وفضل كنز ماله على الانفاق منه فى سبيل الله ٠ وظهر بطره وغروره فى خروجه على الناس فى موكب زينته ، كما كان يفعل أباطرة الرومان ٠ وبالرغم من أن هدى الله قد دله على سلوك متوازن يجمع بين خير الدنيا والآخرة ، فينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وكذلك يتمتع بنصيبه من الدنيا ــ فقرر رفض هدى الله ، واتبع هواه ، وآثر الدنيا على الآخرة فخسر كليهما وذلك هو الخسران المبين ٠

وقد جمعت سورة القصص بين هذين الكافرين ، فبدأت بقصة فرعون ؛ وانتهت بمأساة قارون ٠

٣ ــ **المنسلخ عن آيات الله : وهو العالم** الذى لم ينفعه علمه ، فلم يعمل به ؛ فلم يرفعه الله به الى سماء الربانيين وورثة الأنبياء ؛ لأنه آثر حضيض الأرض ، وسلوك الحيوان ، فاتبع شهوته وهواه :

« **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان**

(١) عن هذه النماذج راجع سيد قطب : **فى ظلال القرآن** ٦٧٦/٩ ، ٣١٤/٢٠ ، ٣٧١ ، ٢١٢/٢٩ ، ٣٥٤ ٠

فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون • ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون • من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »

(الأعراف ٧/١٧٥-١٧٩) •

٤ ـ **الوليد بن المغيرة :** ورد وصف الوليد بن المغيرة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ؛ ثم يطمع أن أزيد ! كلا ! انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا • انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر • وما ادراك ما سقر لا تبقى ولا تذر • لواحة للبشر • عليها تسعة عشر » (المدثر ٧٤/١١ ــ ٣٠) •

وقد كان الوليد بن المغيرة عم أبى جهل ، ومن عظماء قريش ، وفى سعة من العيش • وهذه الآيات تدل بوضوح على أن الوليد قد اسبغ الله عليه نعما كثيرة ، فأعطاه أموالا طائلة وأولادا عدة ، ويسر له الحياة ، ولكنه لم يقابل هذه النعم بشكر الله عليها ، بل اغتر بها ، وجحد فضل منعمها ، فكذب بآيات الله واعرض عنها مع أنه كان فى قرارة نفسه يؤمن بأنها الحق :

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (النمل ٢٧/١٤)

وقد روى أن الوليد جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له • فبلغ ذلك قريشا فقالوا : لئن صبأ الوليد تصبأن قريش كلها • فقال أبو جهل : أنا اكفيكموه • فأتاه فقال له : أى عم ! ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ، قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فانك اتيت محمدا تتعرض لما قبله ! (يريد بخبث أن يثير كبرياءه) قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا • قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له • فقال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالشعر منى ولا أعلم برجزه ولا قصيده ، ولا بأشعار الجن •

والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا . وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وأنه يعلو وما يعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . فدعنى حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : ان هذا الا سحر يؤثر عن غيره . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟ فنزلت : « فذرنى ومن خلقت وحيدا » حتى « عليها تسعة عشر » .

ومن الواضح أن حب المال والرئاسة والمتعة فى الأهل والولد ــ كان أهم العوامل فى رفض الوليد للاسلام ، وتفضيله الضلال على الهدى ، والكفر على الايمان » (١) .

الضال غير الكافر

الانسان الضال بوجه عام هو كل انسان لا يؤمن ولا يعمل بهدى الله ، أى لا يتبع الاسلام فاذا كان عدم الاتباع ناشئا عن تعمد ، وبعد علم بالاسلام وتبين له ، أو امكانية العلم والتبين ــ فالانسان ضال كافر ، كما رأينا فى شخصية الكافر .

واذا كان عدم الاتباع ناشئا عن جهل غير متعمد بالاسلام أو عن اكراه فالانسان ضال غير كافر .

والانسان الضال غير الكافر أنواع منها (على سبيل التمثيل لا لا الحصر) .

١ ــ **الضال من أهل الفترة :** وهو الذى عاش ومات قبل الاسلام ، ولم تبلغه رسالته . فهذا وأمثاله ضالون ولكنهم غير كافرين ، لأن لهم عذرا وهو عدم وجود الهدى وعدم تبيينه لهم . والمشهور من رأى أهل السنة أنهم لا يعذبون على ضلالهم لقوله تعالى :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء ١٧/١٥) .

أما رأى المعتزلة فى أن العقل البشرى وحده يكفى فى التكليف فغير مقبول ، لأن هذا العقل كثيرا ما يخطىء ويضل . فاعتماد الانسان عليه وحده لا يمكن أن يهديه سواء السبيل .

---

(١) راجع سيد قطب : فى ظلال القرآن ٢٩/٣٦١ . وكذلك تفسيره لآيات سورة القلم (٦٨/١٠ ــ ١٦) . ويقال انها نزلت فى الوليد بن المغيرة أو فى الأخنس بن شريق.

وآراء الفلاسفة منذ عصر اليونان حتى اليوم شاهد واضح على أن العقل البشرى المستقل عن الوحى الآلهى قد تعثر فى اخطار فادحة كلفت البشرية ثمنا باهظا فى كل العصور ·

والحضارة الغربية الحديثة ـ وهى وريثة الحضارتين اليونانية والرومانية ـ تتميز بعلمانيتها وماديتها واعتمادها على العقل البشرى المستغنى عن هدى الله · وقد سبق أن أشرنا الى الأخطار التى تهدد الانسانية من جراء هذا الموقف ·

٢ ـ **الضال الأمى :** وهو الذى عاش فترة من حياته فى الجاهلية وفترة فى الاسلام · فلم يتبع هدى الله قبل ظهوره لأنه لم يعرفه ، فلما جاء الاسلام آمن به واتبعه فأصبح مهتديا · ومن هذا النوع كل من أدرك الاسلام فأسلم من أهل الجاهلية وهم المسلمون فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا قبل الاسلام ضالين ، ولكنهم ليسوا كافرين واليهم تشير الآية الكريمة :

« **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** » (الجمعة ٦٢/٢) ·

٣ ـ **الضال الجاهل بوجود الاسلام :** وهو من لا يتبع الاسلام بعد ظهوره لأنه يجهل وجود هذا الدين كلية ، أى لم يسمع به قط ، ولا يعرف عنه شيئا على الاطلاق · كما هو حال كثير من الناس اليوم ، ولا سيما بين القبائل البدائية وسكان المناطق القطبية ·

وفى رأيى أنه لا ينبغى أن نتسرع بتكفير هؤلاء ، أو بالقاء اللوم عليهم وحدهم ، أو على العلماء والدعاة المسلمين وحدهم ، فالمسئولية مشتركة بين جهات عديدة ·

فالحكومات والهيئات الاسلامية مقصرة ، لأنها لم تهيىء عددا كافيا من العلماء والدعاة المؤهلين لتعريف هؤلاء بالاسلام ، كما لم تنشىء المؤسسات الاسلامية الكافية (كالمدارس ومراكز الدعوة ودور النشر) للقيام بهذه المهمة ·

ولكن لا شك أن بعض هؤلاء الجاهلين بوجود الاسلام لا عذر لهم فى هذا الجهل فى عصرنا ، لأنه عصر قد انتشرت وسهلت فيه وسائل المعرفة والاتصال ، فيستطيع هذا البعض ـ لو أرادوا ـ أن يعرفوا الكثير عن

الاسلام بجهودهم الخاصة • ولذلك فهم كفار ، لأنهم مقصرون بدون عذر في طلب الهدى •

ولكن معظم الجاهلين بوجود الاسلام لهم عذر في جهلهم ، وبدلا من أن نتسرع بتكفيرهم ولعنتهم ينبغي أن نسارع بايصال نور الله اليهم ، حتى لا يكون لهم عذر في جهلهم ، ولا يكون علينا ذنب في اهمالهم •

٤ ــ **الضال الجاهل بمحتوى الاسلام :** وهو من لا يتبع الاسلام بعد ظهوره لا لأنه يجهل وجوده ، بل لأنه يجهل محتواه من عقائد وعبادات وشريعة وأخلاق وثقافة أي يجهل كل مبادئه وتعاليمه ، وليس في استطاعته أن يعرف شيئا من ذلك ، لأن وسائل هذه المعرفة غير متاحة له (١) •

وهذه أيضا حال كثير من الناس في عصرنا ولا سيما في الشعوب الناطقة بغير العربية •

وفي رأيي أن عددا غير قليل من هؤلاء سيعتنقون الاسلام ، اذا شرحت لهم مبادئه وتعاليمه شرحا كافيا بلغاتهم ، لقوله تعالى :

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (ابراهيم ١٤/٤) •

وأصدق شاهد على فعالية هذا التبيين اقبال كثير من الافريقيين والاوروبيين والامريكيين واليابانيين والكوريين على الاسلام بعد تقديمه اليهم بلغاتهم تقديما مدروسا لا مرتجلا ، ومبشرا لا منفرا ، مع استخدام كل الوسائل الحديثة للتربية والاعلام في هذا التقديم •

٥ ــ **الضال الاعرابي :** هو المسلم الذي قبل الاسلام بلسانه ، ولكن الايمان لم يدخل قلبه ، ومن ثم فهدى الله (بكماله وشموله) لا يحكم حياته بكل جوانبها • وهذا النوع يشبه الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم :

« قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا » (الحجرات ٤٩/١٤) •

وهذا حال كثير من المسلمين اليوم •

---

(١) فاذا كانت متاحة له ويستطيع استخدامها ولم يستخدمها فهو ضال كافر •

فهناك أعداد غفيرة من عامة المسلمين وخاصتهم ، ينطقون بالشهادتين ، ويؤدون بعض العبادات (كالصلاة والصيام والحج) اداء آليا لا روح فيه ولا أثر له فى سلوكهم فى الحياة وعلاقتهم بالله والناس ٠

فصلاتهم لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وصيامهم لا يحد (بل يزيد) من شرههم على شهوات البطن والفرج ، وحجهم لا يمنعهم من الرفث والفسوق والجدال ٠ بل ان كثيرا منهم يؤدون هذه العبادات مراءاة للناس وبروح انتهازية تهدف الى الكسب المادى والشهرة الزائفة أى يتخذون الاسلام تجارة دنيوية لا صلة لها بتلك التجارة الرابحة التى قال الله عنها :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » (الصف ٦١/١٠-١١) ٠

وهؤلاء يحكمون بعض كتاب الله فى بعض جوانب حياتهم (كمراسيم الزواج والطلاق والميراث أى ما يسمونه «الأحوال الشخصية») وفيما عدا هذا فحياة العامة منهم مكفهرة بظلمات الجهل والخرافة ، وحياة الخاصة ملوثة بضلالات العلمانية والانحلال والترف ٠ والمسلم من هؤلاء وأولئك ذو شخصية جاهلية فيها صلف وجلافة ، وسطحية وتفاهة ، أو شخصية منافقة تقول ما لا تفعل وتظهر غير ما تبطن ، ظاهرها جذاب وباطنها خراب ٠ وكل منهما ذو نفسية غليظة كثيفة لا تحس بآلام المسلمين — فضلا عن أن تواسيهم بعلم أو مال — وذو قلب معتم لا يرى بنور الله لأنه من تلك القلوب اليهودية التى قست بالتكالب على المادة ، فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، بل وأصبح فى طبيعتهم شىء من طبيعة القردة والخنازير وعبد الطاغوت ٠

هذا النوع من المسلمين « كثرة كغثاء السيل » ٠ كثرة تافهة ذليلة ٠٠ « احرص الناس على حياة » ٠٠ اذلهم حب الدنيا وكراهة الموت فهم أموات غير أحياء ٠٠

وبالرغم من كل ذلك فمن الخطأ أن نقذف فى وجوههم بتهمة الكفر فهذه التهمة لا تحل مشاكل المسلمين ، بل تزيدها تعقيدا ، فضلا عن أن الاسلام لا يبررها ٠

فالآية التى استشهدنا بها من سورة الحجرات توضح ثلاث حقائق أساسية بالنسبة للاعراب :

أولا : أنهم مسلمون ٠

ثانيا : أن اسلامهم الظاهرى يعد خطوة تقربهم الى الايمان بدليل التعبير بلما : « ولما يدخل الايمان فى قلوبهم » ٠

ثالثا : أن فى الآية الكريمة تشجيعا لهم على الاستمرار فى هـذا الطريق المتدرج من الاسلام الى الايمان الى العمل بالكتاب والسنة ، الى طاعة الله ورسوله ٠

وهذه المراحل الثلاثة المتعاقبة : الاسلام ـ الايمان ـ العمل بالكتاب والسنة ـ هى المراحل النفسية والتربوية التى ينبغى أن تتبع فى تربية « الأعراب المعاصرين » ! ٠

فلا مناص هنا أيضا لورثة الأنبياء من أن يسلكوا نفس الطـريق الطويل الوعر الذى سلكه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، وهو طريق التربية القائمة على هدى الله ٠

٦ ـ **الضال المكره :** وهو من أكره على أن ينطق بالكفر أو يعمل بأعمال الكافرين ولكن قلبه مطمئن بالايمان فهذا ضال بحسب الظاهـر فقط ، وحقيقته أنه مؤمن صادق ٠ لقوله تعالى :

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (النحل ١٦/١٠٦) ٠

سبب الضلال غير الكافر :

كما سبق يتضح لنا أن أهم أسباب هذا الضلال ـ ما عدا الاكراه ـ هو الجهل بالهدى ٠ وطالما أن هذا الجهل غير متعمد فيمكن تداركـه وعلاجه ، وعلاج الجهل يكون بالعلم ، أى عن طريق تبيين الهدى وتربية الناس عليه ، حتى يحيوا حياة مهتدية ٠ كما أشرنا من قبل ٠

٥ ــ شخصية المنافق

المنافق ــ بوجه عام ــ هو الانســـان الذى يظهر غير ما يبطن ويقول ما لا يعتقد وما لا يفعل ، وبالاحمال بتظاهر بما ليس فيه ٠

والمنافق الكافر هو من يظهر الايمان ويبطن الكفر ٠

وشخصية المنافق شخصية مريضة ، منقسمة على نفسها ، فكأنه شخصيتان منصارعتان تعيشان فى جسد واحد ، احداهما نعبر عن نفسها خلال المظاهر الخارجية التى يراها ويسمعها الناس ، كالملابس والابتسامات والكلمات ، والأخرى تعبر عن نفسها بالمشاعر والاعتقادات الداخلية التى لا يطلع عليها أحد (الا من شاكلها فى النفاق) ، كمشاعر الحب والبغض ، واعتقادات الايمان والكفر ٠

وهذا الصراع ينبع من ان المنافق ليس أمينا مع نفســـه ولا مع الناس ، فهو يكذب على نفسه ليرضى الناس ، ويكذب على الناس ليخدعهم عن حقيقته ٠ والواقع أنه لا يخدعهم ، لأن أعماله لا تصدق أقواله ، وهذا التعارض بين ما يقول وما يفعل هو الذى يكشف للناس حقيقته مهمـا حاول اخفاءها ٠ فهو اذن يخدع نفسه ، ولا يخدع الناس ، فضلا عن أن يخدع خالقه الذى يعلم خائنة الأعين وما نخفى الصدور ٠ **وهذا مصـداق قوله تعالى عن المنافقين :**

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون » (البقرة ٢/٩)

وقد أشار القرآن الى أن شخصية المنافق مريضة وذلك فى قوله تعالى عن المنافقين :

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عـذاب أليم بما كانوا يكذبون » (البقرة ٢/١٠)

كما أشار القرآن الى السمات النفسية التى تعد أعراضا لهذا المرض ومن اهمها :

١ ـ **خداع النفس** ·

٢ ـ **الكذب** ·

وهاتان السمتان مترابطتان ، فالذى يخدع نفسه ويخدع الناس لابد أن يكذب على نفسه وعلى الناس ·

٣ ـ **الفسق** : وهو صفة عامة تشمل كثيرا من الصفات الأخرى للمنافق ، اذ ان الفاسق هو من يؤمن بالاسلام ويلتزم بمبادئه وبأحكام شريعته ظاهرا ، ولكنه يخالفها ـ عن علم وعن عمد ـ فى أعماله · قال تعالى : « **ان المنافقين هم الفاسقون** » (التوبة ٩/٦٧) ·

٤ ـ **الافساد فى الأرض مع ادعاء الاصلاح : كما قال تعالى : « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون** » (البقرة ٢/١١ ـ ١٢) ·

٥ ـ **السفه واتهام المؤمنين به** : قال تعالى : « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء** » (البقرة ٢/١٣) ·

٦ ـ **التظاهر بالايمان أمام المؤمنين** : فاذا انفردوا بمن هم على شاكلتهم (ولا سيما اليهود) (١) صرحوا بكفرهم وبأن تظاهرهم بالايمان ما هو الا استهزاء بالمؤمنين « **واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم (١) قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون** » (البقرة ٢/١٤)· ومن ثم فولاؤهم الحقيقى للكفار : « **يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** » (النساء ٤/١٣٩) ·

٧ ـ **مراءاة الناس بأعمال الخير والعبادة ولا سيما الصلاة** :

« **واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس** » · (النساء ٤/١٤٢)·

---

(١) راجع سيد قطب : **فى ظلال القرآن** · ١/٣٠ ، حيث يرجح من سياق السورة وسياق السيرة أن الاشارة الى « شياطينهم » تعنى اليهود · وقد كان اليهود هم الحلفاء الطبيعيون للمنافقين · **ويتضح هذا فى أحداث كثيرة منها أنه لما أمر** الرسول (ص) يهود بنى النضير بالجلاء عن المدينة نتيجة لمحاولتهم قتله (ص) غدرا ، أغراهم المنافقون بالبقاء ، ووعدوهم بالعون وقالوا لهم « **لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** » (الحشر ٥٩/١١ ـ ١٢) · وراجع محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول ٢/١٧٦ ـ ١٢٦ ·

٨ ــ كثرة الحلف للمؤمنين ليخدعوهم عن كفرهم :

« **ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم** » (التوبة ٩/٥٦) ٠

« **يحلفون بالله لكم ليرضوكم** » (٩/٦٢) ٠

« **اتخذوا أيمانهم جنة** » (المنافقون ٦٣/٢) ٠

٩ ــ اختلاق الأعذار : والمنافق دائما معذار ذو عقلية تبريرية ، ليتخلفوا عن المشاركة فى بناء الجماعة المؤمنة والدفاع عنها ، ولا سيما عن طريق الجهاد والانفاق ٠ كما تخلفوا مثلا عن **غزوتى الأحزاب وتبوك** ٠

ففى الأولى تخلفوا عن الدفاع عن المدينة : « **ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا** »

(الأحزاب ٣٣/ ١٣) ٠

وفى الثانية تخلفوا عن الخروج مع المؤمنين ، وكانوا يحلفون لهم بالله : «**لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون**» (التوبة ٩/٤٢) ٠ « **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** » (٩/٨١) ٠

١٠ ــ جمال الظاهر وخراب الباطن :

« **واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم** » ٠

(المنافقون ٦٣/٤) ٠

١١ ــ التآمر على المسلمين : شخصية المنافق بطبيعتها شخصية متآمرة : يظهر غير ما يبطن ، يعمل فى الظلام ، يثير الفتن والدسائس بين المسلمين ، ويستعين على ذلك بأساليب الاستخفاء والتبييت والتربص والتثبيط والفرقة :

« **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول** » (النساء ٤/١٠٨) ٠

« **لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم** » (التوبة ٩/٤٧) ٠

والصفات السابقة كلها تؤكد أن شخصية المنافق فى أعماقها تموج

بالغدر والخيانة · ومما يزيد هذه الحقيقة تأكيدا العلامات التى نستدل بها على المنافق ، وهى التى أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان » (متفق عليه) ·

ومن الواضح أن الصفات السابقة تدل على مرض الشخصية وازدواجها كما تدل على أنها شخصية شريرة ·

ووجود الازدواج فى الشخصية الانسانية هو فى حد ذاته شر ، لأنه انقسام وتجزؤ يودى بوحدتها الباطنة وسلامها الداخلى · وقد لاحظ بعض المفكرين أن حكمة الفطرة الشعبية · التى تؤثر الخير على الشر تعبر عن نفسها أحيانا عن طريق اللغة :

فالكلمات التى تدل على الازدواجية والثنائية فى بعض اللغات تدل فى نفس الوقت على معنى من معانى الشر ·

فالبادئة اللاتينية dis- وهى مشتقة من duo (= اثنين) تدخل على كلمات انجليزية كثيرة فتحولها من معنى الخير وما يتصل به الى نقيض معناها : فمثلا كلمة honourable (أى ذو شرف) تصبح dishonourable (أى لا شرف له) وكلمة grace (وتدل على معانى النبل والفضل) تصبح disgrace (ومعناها العار) ، وكلمة unity (الوحدة) تصبح disunity وتدل على الفرقة وتمزق الشمل (١) ·

وشخصية المنافق هى كذلك شخصية انتهازية ، لأن المنافق يلعب على حبلين ، ويحاول أن يرضى فريقين متصارعين ، محاولا خداعهما معا ، والاستفادة منهما معا ! وهذا الموقف المذبذب هو الذى اتخذه المنافقون فى المدينة من الصراع الدائم الرحى بين المؤمنين والكافرين فلا شك أن هوى المنافقين كان مع الكفار ، ولكنهم كانوا ينتظرون حتى تنجلى الموقعة : فاذا انتصر المسلمون زعموا لهم أنهم أسهموا فى انتصارهم وانهم كانوا معهم ! واذا انتصر الكفار زعموا لهم مثل ذلك :

« الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وان كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » (النساء ٤/١٤١)

---

(١) Huxley, A. : The Perennial Philosophy, p. 23.

وهذه الذبذبة النفعية اللاأخلاقية لا تقتصر على منافقى المدينة بل ينصف بها كل منافق : « **مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء** » (١٤٣/٤) .

وهذه الذبذبة تدل على أن شخصية المنافق شخصية شريرة لأنها لا أخلاق لها ولا مبادىء ، وذلك كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » .

(متفق عليه)

وهذه الذبذبة تشبه ما يسمى اليوم فى اللغة السياسية بالحياد . وحقيقة هذا الحياد كذب وخداع ، فليس هناك دولة ، ولا سيما دولة اسلامية ، تقف على الحياد ، فهى اما مع الغرب الرأسمالى أو الشرق الشيوعى .

وهب أن هذا الحياد حقيقى فماذا يعنى وقوف دولة اسلامية على الحياد بين معسكرين كلاهما كافر ؟ أليس يعنى قبول الكفر فى المعسكرين ؟ أو على الأقل عدم المبالاة ؟ أليس المعسكران يتعاونان معا على حرب الاسلام والمسلمين ؟ أليس الأكرم للمسلمين أن يعتزوا باسلامهم ويستقلوا عن الفريقين ؟

أنواع النفاق

للنفاق صور وأنواع شتى ، يمكن أن نميز منها نوعين رئيسيين :

(أ) نفاق التملق :

وهو تقرب الانسان الى الناس (ولا سيما ذوى السلطة والثروة) بما يغضب الله ويرضيهم ، كمدحهم بما ليس فيهم ، والتذلل لهم لتحقيق هدف نفعى هو فى الغالب جمع المال أو احراز الجاه أو كلاهما ، أى أن الدافعين الأساسيين لهذا النوع من النفاق هما الطمع والخوف أو الرغبة والرهبة .

وهذا التملق وما يشبهه من تصنع الانسان للناس وتظاهره أمامهم بما ليس فيه وقوله لهم ما لا يعتقده ــ كل ذلك نفاق يبغضه الاسلام :

---

(١) الاحياء : ٩٩/١٠ ــ ١٠٠ .

عن محمــد بن زيد أن ناسا قالوا لجده عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : انا ندخل على سلاطيننا فنقول بخلاف ما نتكلم (به) اذا خرجنا من عندهم • قال : « كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (رواه البخارى) •

أهمية الناس عند المنافق :

للناس أهمية كبرى عند المنـافق بوجه عام والمتمـلق بوجه خاص ولكنها أهمية نفعية ، أى لا باعتبار قيمهم الانســانية أو مصـالحهم أو مضارهم ، بل باعتبارهم وسائل لتحقيق غاياته • ولذلك فهو يرجوهم ويخشاهم طالما يظن انهم يحققون تلك الغايات ، ومن ثم يعمل مايرضيهم ويتجنب ما يغضبهم • ولا يقيم وزنا لما يرضى الله أو يغضبه ، لأن هذا مقياس المؤمن وليس مقياس الكافر فى الأعمـال • ولذلك وصف الله المنافقين بأنهم « **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله** » • (النساء ٤/١٠٨) •

ان من هدى الاسلام أن يعامل المسلم الناس بما يرضى الله ، ومايرضى الله لابد أن يرضيهم اذا كانوا مهتدين ، ولكنه لا يرضيـهم اذا كانوا ضالين ، لأن هؤلاء يتبعون أهواءهم فلا يرضيهم الا ما يسخط الله عز وجل•

أما فلسفة هذا النفاق فتنادى دائما بارضاء النـاس أو « تحقيق رغبات الجماهير » بأى ثمن ! وغالبا ما يتم ذلك بارضاء غرائزهم وشهواتهم الحيوانية اذا كانوا من العامة ، أو بارضاء غرورهم اذا كانوا من الحكام و « الخاصة » •

وواضح أن هــذا أقصر طريق لتحقيق النجاح المـادى العاجل الرخيص ، ولكنه أيضا أقصر طريق لاستدعاء غضب الله •

يقول حجة الاسلام (١) : « اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراغاة الخلق ، مشغوفا بالتودد اليهم ، والمراءاة لأجلهم ، ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد • ويجر ذلك لا محالة الى التساهل فى العبادات والمراءاة بها ، والى اقتحام المحظورات للتوصـل الى اقتناص القلوب » • ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسـلم حب الشرف

---

(١) الاحياء : ١٠/٩٩ ــ ١٠٠ •

(الجاه) والمال وافسادهما للدين بذئبين ضاريين (١) ، وقال عليه السلام انه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل (٢) ، اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس فيضطر الى النفاق معهم ، والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق » .

والرياء عند الامام الغزالى مختص بمراءاة الناس بالعبادة (٣) ، ولكنه كما يفسد العبادة يعرض المرائى فى الدنيا « لتشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فان رضى الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ، ورضى بعضهم فى سخط بعضهم . ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه ، وأسخطهم أيضا عليه . ثم أى غرض له فى مدحهم وايثار ذم الله لأجل حمدهم ، ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته يوم القيامة » .

ومن أروع المقارنات بين نفسية المؤمن والمنافق وموقف كل منهما من الحياة والناس ، قول حاتم الأصم (٤) :

« المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل والمؤمن آيس من كل أحد الا من الله ، والمنافق راج كل أحد الا الله . والمؤمن آمن من كل أحد الا من الله ، والمنافق خائف من كل أحد الا من الله . والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله . والمؤمن يحسن ويبكى ، والمنافق يسىء ويضحك . والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملأ . والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد . والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد » .

(ب) نفاق الكفر :

وهو أخبث أنواع النفاق ، لأنه خداع للمؤمنين ، لا لمجرد تحقيق

---

(١) الحديث : « ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأسرع افسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم » . (الاحياء ٨٤/١٠) وقد رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث . « حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

(٤) السابق ١٣٦/٨ .

نفع لفرد أو دفع ضرر عنه ، بل بهدف الاضرار بهم كافة ، والقضاء عليهم جميعا ، واطفاء نور الله فى الأرض .

وهذا النوع هو الذى كان يستعمله المنافقون فى المدينة ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فكانوا يتظاهرون بالايمان بينما ينصلون سرا بأعداء المؤمنين ولا سيما اليهود ، ويتآمرون معهم على حرب الاسلام والمسلمين .

ولا شك أنهم كانوا أشد خطرا من الكفار ، لأنهم كانوا يختلطون بالمسلمين ويتجسسون عليهم ، وينقلون أسرارهم الى أعدائهم ، أو يقومون بنشر الاشاعات الكاذبة التى تثير الذعر والبلبلة بين صفوف المسلمين ، كما فعلوا أثناء غزوة الأحزاب وفى حديث الافك . أو يقومون بما ينبط المسلمين ، ويخذلهم عن القتال ، كانسحابهم من صفوف المسلمين قبيل معركة أحد أو تخلفهم كلية عن القتال بأعذار واهية كاذبة كما فعلوا فى غزوة تبوك ، أو قيامهم بمشروعات تهدف الى اثارة الفتنة والفرقة بين المسلمين كانشائهم مسجد الضرار .

وهذه الأعمال وأمثالها تشبه ما يقوم به الطابور الخامس فى العصر الحاضر من عمليات التجسس والتخريب والتثبيط واثارة الفتن داخل المجتمع لمساعدة العدو الخارجى . ولذلك أمر الله المؤمنين أن يعدوا كل ما استطاعوا من قوة ليواجهوا كلا النوعين من العدو :

العدو الكافر المكاشف بعداوته ، والعدو المنافق المندس بين صفوفهم:

« **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** » (الأنفال ٨/ ٦٠).

وبالرغم من وجود المنافقين فى مجتمع المدينة ، واستمرار مؤامراتهم فانهم فشلوا تماما فى تحقيق هدفهم وهو القضاء على الجماعة المؤمنة فى المدينة . ودائما كان ينكشف نفاقهم ويبطل كيدهم ، لأن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا ملتزمين بالاسلام ، والاسلام بطبيعته الواضحة المستقيمة التى ترفض الالتواء والعوج ، وبشموله لظاهر الانسان وباطنه ، وبتربيته المسلمين على اليقظة لكل خطر والاعداد له – لا يسمح للنفاق أن يظل مستورا لمدة طويلة .

فاذا كان المنافق يستطيع ان يخدع المؤمنين عن عقيدته – فان أعماله وأخلاقه ومواقفه من المؤمنين لا تلبث أن تكشفه .

ففي باب العبادات مثلا لابد أن ينكشف ، لأنه يتهرب من أداء الصلاة ولا يؤديها الا كارها متكاسلا ؛ لأنه يؤديها رياء كما قال تعالى :

« **ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا** » (النساء ٤/١٤٢) .

وكذلك يتهرب من الانفاق ولا يؤديه الا كارها كالصلاة :

« **ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقـــون الا وهم كارهون** »
(التوبة ٩/٥٤)

وكيف يشارك فى الانفاق على حاجات الجماعة المؤمنة وهو كافر ؟
ولذلك حكى القرآن عن المنافقين انهم قاموا بالدعوة الى منع الانفاق على المسلمين ليرغموهم على التخلي عن الرسول ورسالته :

« **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** »
(المنافقون : ٦٣/٧)

وهذه الدعوة تشبه سياسة التجويع والمقاطعـــة الاقتصادية التى تنتهجها الدول الكافرة ــ كأمريكا ــ لارغام بعض الدول الاسلامية على التخلي عن الاسلام .

أما أخلاق المنافق فهى كذلك من أهم العلامات التى تدل المسلمين على نفاقه ، ومن تلك الأخلاق الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة كما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ظهرت هذه الأخلاق كلها فى نكث المنافقين فى المدينة بوعدهم بأن يتصدقوا اذا أغناهم الله :

« **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصـــــدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقـــونه بما أخلفوا الله ما وعـــدوه وبما كانوا يكذبون** » (التوبة ٩/٧٥ ــ ٧٧) .

ومن اخلاق المنافق أنه فاسق . **ولذلك يدعو النـــاس الى عكس ما يدعوهم اليه الاسلام فيأمرهم بالمنكر وينهاهم عن المعروف :**

« **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون** »
(التوبة ٩/٦٧) .

وأما المواقف العدائية للمنافق فتظهر حتما فى أوقات الصراع بين المؤمنين والكافرين وما أكثر تلك الأوقات ! حيث ينحـــاز المنـــافق الى الكافرين ، لأنه يواليهم على المؤمنين ، **مستشعرا فى هذا الولاء العزة لنفسه الذليلة :**

« **بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما · الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عنـــدهم العزة فان العزة لله جميعـــا** » ·
(النساء ٤/١٣٨ ـ ١٣٩)

(أليس هذا ما يفعله كثير من المسلمين اليوم ولا سيما حكامهم حيث يوالون الكفار والدول الكافرة ضد المؤمنين ؟) ·

وهكذا تنكشف أضغان المنافقين كما قال الله تعالى :

« **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم** »
(محمد ٤٧/٢٩) ·

وبالرغم من كل هذا فقد اختط الاســـلام خطة حكيمة فى معاملة المنافقين تجمع بين التسامح والحذر ·

أما التسامح فواضح فى معاملة الاسلام للمنافقين فى أمور الدنيا معاملة المسلمين وذلك بحسب ظاهرهم · وهذه المعاملة تفتح لهم باب التوبة على مصراعيه ليتطهروا من نجاسة الكفر ·

« **ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا · الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما** » (النساء ٤/١٤٥ـ١٤٦)·

أما الحذر فقد نبه الاسلام المسلمين الى خطرهم ، وحذرهم من الركون اليهم ، أو الثقة بهم ، أو التخلق بأخلاقهم ، كما دلهم على أهم السمات التى يتعرفون بها على المنافق فيتقوا شره · وقد قال بعض الحكماء : « ملابسة المنافق بلا تيقظ كملاقاة العدو بلا سلاح » (١) ·

ومهما يكن فالاسلام يرفض النفاق بكل صوره وأنواعه ، لأنه فى حقيقته تفضيل للضلال على الهدى ، والعوج على الاستقامة ، **ومن ثم فحياة المنافقين تشبه عملية تجارية خاسرة لأنهم :**

« **اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** »
(البقرة ٢/١٦)

(١) العامرى : السعادة والاسعاد ص ١٤٧ ·

ولذلك يربى الاسلام شخصية المسلم على الاستقامة واستواء السر والعلن ، وأن يكون ظاهر المسلم تعبيرا أمينا عن باطنـــه ، فيكون مؤمن اللسان والقلب معا ، يقول الكلمة الطيبة ويعمل العمل الصالح ، ينطق بكلمة الشهادة ويؤمن بها ويحيا ويموت عليها ٠

ولا يجوز للمسلم أن يتخلى عن هذه القاعدة الا فى حالة الاستثناء أى فى حالة الضرورة القصوى ، وهى حالة الاكراه المفضى الى التهلكة ، كما قال تعالى :

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (النحل ١٦/١٠٦) ٠

وكذلك ولاء المسلم ينبغى ألا يعطيه الكافرين الا فى حالة الاكراه وهى حالة اتقاء ضرر محقق منهم ، وهذه الحالة مؤقتة ومشروطة بالتأكد من تحقق الضرر ، ولذلك يزول حكمها بزوال الخوف من الضرر كما قال تعالى :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة » (آل عمران ٣/٢٨) ٠

عـلاج النفـاق

(أ) نفاق التملق :

ان الدافعين الأساسيين للتملق هما الخوف والطمع ٠

والتملق مرض نفسى واجتماعى ينتشر بين المســـلمين كالوباء فى عصور الانحطاط ، وهى العصور التى يبتعدون فيها عن دينهم ، ويضعف اعتزازهم به ، وذلك لأنه يضعف ايمانهم بالله ، فيضعف خوفهم منه ورجاؤهم فيه ، بينما يقوى ايمانهم بالحياة الدنيا ويشتد حرصهم عليها ، ومن ثم تزداد أهمية الناس عندهم ، فيزداد الخوف منهم والطمع فيما فى أيديهم ، ولا سيما فى المال والجاه ٠

ونجد ظاهرة التملق واضحة فى تاريخ الأدب والتاريخ السياسى والتربية المعاصرة ٠

ففى تاريخ الأدب نجدها واضحة فى التكسب بالشعر عن طريق المدح الكاذب للخلفاء والأمراء وذوى المال والجاه ٠

وفى التاريخ السياسى نجـدها واضحة فى العـــلاقات بين الحاكم

والرعية ، حيث تعبر الرعية عن احترامها للحاكم بأساليب لا تتفق مع المفهوم الاسلامى للعلاقة بين مستخلف مسئول عن رعيته ، ورعية مسئولة عن اختياره وعزله ـ وانما هى أقرب الى العلاقة بين السيد والعبد : السيد المطلق التصرف الذى لا يسأل عما يفعل ، والعبد الذى لا يملك الا الرضوخ والخضوع ، بل ان بعض المجتمعات الإسلامية فى غرب أفريقيا تحيى الرعية أميرها بما يشبه الركوع والسجود !.

وفى التربية المعاصرة نجد أطفال المسلمين ينشأون غالبا على الخوف من آبائهم ، فلا يجرؤون على التعبير عن أنفسهم تعبيرا صريحا مستقيما ، دون لف أو دوران ٠

وهذه التربية القائمة على التخـــويف تؤدى الى عواقب وخيمة فى الحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين ٠

ففى الحياة الاجتماعية ينتشر تملق الضعفاء للأقوياء ، والمرؤوسين للرؤساء ، ويترتب على هذا ألا يقدر المسلم لجهده وكفاءته واسهامه فى خدمة الجماعة ، بل لتملقه أفرادا معدودين من « ذوى الجاه » و « ذوى النفوذ » ٠ ونتيجة لذلك يتولى المناصب غالبا من لا يصلحون لها ، بينما تبعـد أو تبتعـد العقول الكبيرة والكفاءات العالية فيفقد المجتمع خـير عناصره ، وبذلك يضعف ويموت ببطء لأنه يتآكل من داخله بانتشار الفساد وتولية المفسدين كما تتـآكل الشجرة بالســـوس ينخرها من داخلها ٠

أما فى الحياة السياسية فهناك علاقة وثيقة بين النفاق والاســتبداد السياسى ٠ ومن أهم الظواهر المرتبطة بطغيان الحكام المسلمين اليوم ابعاد ذوى الخلق والكفاءة والاخلاص فى النصيحة ، وتقريب المنافقين الذين يجيدون المدح الكاذب والتملق الرخيص ٠

ولتصحيح هذا الموقف يجب أن نبدأ من البيت فنربى أولادنا (بنين وبنات) على أدب الاسلام ، وهو يقضى بالحق وابداء الرأى فى جو من الشورى وهى من أعظم وأهم قواعد السلوك فى الحياة الاسلامية بكل مستوياتها : من البيت الى مكان العمل الى ادارة الدولة ٠ فمن أهم صفات المؤمنين فى القرآن أن أمورهم تقرر بالشورى :

« **وأمرهم شورى بينهم** » (الشورى ٤٢/٣٨) ٠

وفى موعظة لقمان لابنه نراه ينصحه بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مع ما يقتضيه ذلك من الصراحة فى القول والجرأة فى الحق وكذلك ينصحه بأن يكون بارا بوالديه وفى نفس الوقت أن يكون له من

استقلال الفكر وشجاعة الرأى ما يمكنه من أن يعصيهما ان جاهداه على شرك (لقمان ١٤/٣١ ، ١٧) ٠

بل ان الله تعالى يأمر المؤمنين جميعا أن يلتزموا الحق والعدل ولو أدى ذلك الى أن يتخذوا مواقف ضد أنفسهم ووالديهم وأقاربهم ٠

« يا أيها الذين آمنــوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (النساء ١٣٥/٤) ٠

وهناك درس تربوى عظيم كذلك فى قصة عمر مع الأولاد ٠ فقد فروا من طريقه الا ولدا واحدا وقف مطمئنا يبين للخليفة أنه لم ير سببا يدعو الى فراره ، فليست الطريق ضيقة فيوسعها له ، ولم يرتكب جريمة فيخافه ٠

وما لم نرب أولادنا ليكونوا مثل هذا الولد فلن يكون لنا حاكم مثل عمر ٠

ومن الواضح أن ابداء الرأى لا يستلزم سوء الأدب ، فالاسلام يربى المسلم على أن يجهر بالحق فى أدب كما قال تعالى :

« لا يحب الله الجهــر بالســـوء من القــول الا من ظـــلم » ٠
(النساء ١٤٨/٤)

ولذلك أمر الله تعالى الانسان المسلم حين يخالف والديه فلا يطيعهما فى المعصية أن يستمر فى معاملتهما بالاحسان ، ومصاحبتهما بالمعروف ٠
(لقمان ١٤/٣١) ٠

وكذلك نصح لقمان ابنه بعـــد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ألا يصعر خده للناس أى لا يكلمهم أو يعاملهم بوقاحة واساءة أدب ٠
(لقمان ١٨/٣١) ٠

هذا عن الخوف ،

أما الطمع فالمتملق يحب المال والشهرة ، ويحب التملك للماديات والتمتع بها والاستكثار منها والتفاخر بها ، وطلب الجاه والمنزلة بين الناس عن طريقها ٠ وهذا يدل على حرص شديد على أعراض الدنيا كغاية فى ذاتها ، لا كوسيلة الى ابتغاء رضوان الله عن طريق الأعمال الصالحة ٠

وهذا التيار واضح أيضا فى البيت المسلم والمجتمع المسلم ٠

فنرى الأولاد يقلدون والديهم فى تمجيد الماديات والاستكثار منهـا والتفاخر بها أمام الناس ، وتقييم الانسان المسلم بقدر ما يملك منها ، ومن المال الذى يشتريها ، والجاه الذى يساعد على اقتنائها ٠

وتحت تأثير الحضارة المادية المعاصرة ، وتأثير وسائل الاعلام التى تعملق الأقزام وتتحكم الى حد كبير فى شهرة الأشخاص (ومع الأشخاص الأفكار والمبادىء والمذاهب) ، ومع غيـاب القيم الاســلامية عن البيت والمدرسة والمجتمع ـ يزداد هذا التيار قوة بين المسلمين يوما بعد يوم ٠

ولا يصد هذا التيار الا تيار اسلامى أقوى منه ، يصحح فهم المسلم للمال والشهرة والتمتع بالطيبات والعلاقة بالناس ٠ ومن ثم يصـــحح موقفه من الحياة والأحياء ٠

ولا يتم هذا التصحيح الا بأمرين :

١ ـ حسن صلة المسلم بالله ٠

٢ ـ اتخاذ هدى الله وحده مرشدا له فى تصحيح فهمه وسلوكه ٠

فاذا حسنت صلة العبد بربه أيقن أن ضره ونفعه ، ورزقه وأجله ، وحياته وموته ، ومصيره ومصير الناس جميعا بيد الله وحده :

« **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** » (الأنعام ١٨/٦) ٠

فلا يكون خوف الا منه ، ولا طمع الا فيه ٠

وبهذا يتحرر المسلم تحررا حقيقيا من الخوف من الناس ومن الطمع مما فى أيديهم من مال أو جاه ٠ ولا يعود يلهث وراءهم كالكلب بل يجد فى السعى وشرف العمل والكسب عزة تغنيه عن مذلة التملق ، ويقنع من المال بما يكفى الضرورات ويغنيه عن سؤال الناس ٠ وكذلك لا يسعى وراء شهرة لشخصه ، بل يسعى وراء تبيين هدى الله ونشر نوره بين الناس ٠

فذلك خير وابقى ٠

(ب) نفاق الكفر :

يصعب جدا علاج هذا النفاق ، لأنه كما رأينا من تحليله مرض نفسى خبيث ، وهو كذلك داء اجتماعى عضال ٠

ولعل أفضل وسيلة لعـــلاجه هى وجود المجتمع المســـلم الملتزم

بالاسلام • وذلك لأن الخطوة الأولى الطبيعية والضرورية لعلاج أى مرض هى اكتشافه • ولا يسهل اكتشاف النفاق فى المجتمع الكافر ، لأن النفاق نوع من ضلال الكفر ، ولا يكشف الضلال بالضلال بل بالهدى • فجراثيم النفاق تعيش وتتكاثر فى الظلام ، و لايمكن اكتشافها الا اذا سلطت عليها أضواء الهدى •

وقد رأينا أن المنافق يمكن ، بل ويسهل ، اكتشافه فى المجتمع المسلم ، لأن أعماله وأخلاقه ومواقفه جميعا تتعارض مع الاسلام •

وفى المجتمع المسلم تتحدد الأفعال الانسانية بمقاييس الهدى والضلال وبمقتضى هذه المقاييس تتحدد الفروق بين الناس وبها يتمايزون•

أما فى المجتمع الضال (أى الكافر أو غير الملتزم بالاسلام) فتتميع هذه الفروق لانعدام تلك المقاييس أو اضطرابها ، وتنشأ فروق أخرى وفقا لمقاييس مادية كافرة كالفروق فى الدخل أو اللون أو الطبقة الاجتماعية أو النعرة القومية أو العنصرية ، وبمقتضى هذه المقاييس يتفاضل الناس ويتمايزون •

ومعاملة الاسلام للمنافقين حسب ظاهرهم هى كذلك نوع من العلاج الحكيم ، فهذه المعاملة لا تستهين بخطر النفاق ولا تهمل الاعداد له • ولكنها تفرق بين المجاهر بالكفر والعداوة والمستخفى بهما • فلا يجوز فى ميزان الحكمة والعدالة أن يسوى بين المجرم المجاهر بجريمته ، المتحدى علنا لسلطة القانون والدولة وسلامة المجتمع ، والمجرم المستخفى الذى ينكر جريمته ويتبرأ منها اذا ووجه بها • فالمستخفى بجريمته ــ رغم خطورتها ــ شره محدود ، اما المجاهر فشره مستطير الى المجتمع كله • ولذلك أجمع الفقهاء ــ مثلا ــ على تشديد عقوبة المجاهر بالافطار فى رمضان •

هذه المعاملة تتيح للمنافق أن يراجع نفسه ، وتفتح له أبواب العودة ــ فى هدوء ــ الى الايمان ظاهرا وباطنا دون أن يفقد ماء وجهه •

وفى الوقت نفسه يحاول الاسلام أن يعجل بهذه العودة عن طريق اختلاط المؤمنين بالمنافقين ، ومحاولة اقناعهم بالحكمة والموعظة والأسوة الحسنة أن تجارة النفاق خاسرة ، وأن المؤمنين وحدهم « **يرجون تجارة لن تبور** » (فاطر ٣٥/٢٩) •

ولذلك أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاغضاء عن مواجهتهم

والاستمرار فى وعظهم بالقول البليغ الذى يصل الى أعماق نفوسهم لعله يغيرها :

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » (النساء ٤/٦٣) ٠

نموذج لشخصية المنافق

عبد الله بن ابى بن سلول

- كان زعيم المنافقين فى المدينة ، وهو من الخزرج ، وكان مرشحا لرياسة المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

فحقده على ضياع رياسته كان أهم أسباب كفره ٠ وخوفه من قوة المسلمين المتزايدة فى المدينة كان من أهم أسباب نفاقه ٠

وكل أعماله ومواقفه من المؤمنين فى المدينة تدل على نفاقه ، وتؤكد اعتلال شخصيته ٠

وفيما يلى أمثلة منها (١) :

١ ـ وقف دائما مع اليهود ضد المسلمين :

ـ فنتيجة لخيانة يهود بنى قينقاع عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد انتصارهم فى بدر ـ حذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم فقال تعالى :

« **واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين** » (الأنفال ٨/٥٨) :

فتبرأ **عبادة بن الصامت** من حلفهم ، ولكن عبد الله بن أبى تشبث بذلك الحلف وقال : « انى رجل أخشى الدوائر » ٠ وهو ما يشير اليه القرآن فى قوله تعالى :

« **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن نصيبنا دائرة فعسى الله ان ياتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** » (المائدة ٥/٥٢) ٠

ـ لما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باخراج يهود بنى النضير من المدينة لخيانتهم ـ (اذ حاولوا قتله (ص) غدرا) ـ أغراهم عبد الله بن أبى وأتباعه من المنافقين بالبقاء ووعدوهم الاشتراك معهم فى قتال المؤمنين ، كما قال تعالى :

---

(١) راجع سيد قطب : **فى ظلال القرآن** ٢٨/١٣٠ ومابعدها ٠

«ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون · لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون »
(الحشر ٥٩/١١ ـ ١٢) ·

٢ ـ حاول اثارة الفتنة بين المسلمين :

ـ بعد غزوة بنى المصطلق اختصم أجير لعمر بن الخطاب مع حليف للخزرج على ماء فضرب الأجير الحليف فاستصرخ بقومه ، واستصرخ الأجير بالمهاجرين ·

وكادت أن تكون فتنة بين المهاجرين والأنصار ·

لولا أن خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمهم ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وسكنت الفتنة ·

فلما بلغ عبد الله بن أبى نبأ الخصام غضب وقال لرهط من الخزرج : ما رأيت كاليوم مذلة ! أو قد فعلوها ؟ نافرونا فى ديارهم ؟ والله ما نحن والمهاجرين الا كما يقول الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله « **لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل** » (المنافقون ٦٣/٨) · ثم دعا قومه ألا ينفقوا على المسلمين حتى ينفضوا · واستأذن عمر الرسول فى قتل ابن أبى أو أن يأمر أحدا بقتله فنهاه عن ذلك وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ·

وكادت الفتنة تعود أشد مما كانت لولا أن عالجها الرسول صلى الله عليه وسلم بحكمته ، فأذن بالرحيل حتى شغل الناس عن الموضوع · وكلم بعض الأنصار عبد الله بن أبى فى أن يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم الاستغفار ، فلوى رأسه واستكبر · ثم نزلت سورة المنافقين ·

٣ ـ وعقب غزوة بنى المصطلق أيضا ذاع حديث الافك المشهور والذى تولى كبره هو عبد الله بن أبى بن سلول !

ونعوذ بالله من النفاق والمنافقين ·

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؟

المصادر والمراجع

القرآن الكريم : وهو المصدر الرئيسى لهذه الدراسة .

ابن تيمية ، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم : السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، ط رابعة دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٩ .

ابن حنبل ، أحمد بن محمد : المسند*

ابن ماجة ، محمد بن يزيد : كتاب السنن*

ابن النديم ، محمد بن اسحاق : الفهرست ، نشرة فلوجل ليبزج ١٨٧٠

اسد ، محمد : الاسلام على مفترق الطرق (بالانجليزية) لاهور ١٩٦٣

أبو داود ، سليمان الأشعث : كتاب السنن*

البخارى ، محمد بن اسماعيل : الجامع الصحيح*

البنا ، حسن : مجموعة رسائل الامام الشهيد ط. ثانية بيروت ١٩٦٥/١٣٨٤ .

البوطى ، سعيد رمضان : فقه السيرة ط. ثامنة دار الفكر ، القاهرة ١٩٨٠/١٤٠٠ .

بوكاى ، موريس : دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة الترجمة العربية ط. رابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

البيرونى ، أبو الريحان محمد بن أحمد : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة حيدر آباد ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .

البيهقى ، أبو بكر أحمد بن الحسين : كتاب السنن الكبرى*

الترمذى ، محمد بن عيسى : الجامع الصحيح*

التونى ، محمد شوكت : محمد محرر العبيد ، القاهرة ١٩٧٥ .

جارودى ، رجاء : الاسلام وأزمة الغرب ، محاضرة بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٨٣/١/٥ .

---

(١) عدة طبعات .

جميلة ، مريم : الحضارة الغربية تدين نفسها (بالانجليزية) جزآن لاهور ، ١٩٧٠ ٠

حوى ، سعيد : الاسلام ٤ أجزاء : القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧ ٠

جند الله ثقافة وأخلاقا ، ط٠ ثانية القاهرة ، بلا تاريخ ٠

الرسول ، جزآن ط٠ ثانية ، بيروت ١٣٩٧/١٩٧٧ ٠

سابق ، سيد : فقه السنة ، ٣ أجزاء (دار الكتاب العربى) بيروت ، ١٣٩١ ــ ١٣٩٧ (١٩٧١ ــ ١٩٧٧) ٠

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن : الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، جزآن ــ القاهرة ــ بلا تاريخ ٠

شلبى ، أحمد : أديان الهند الكبرى ، ط٠ ثانية ، القاهرة ١٩٦٦ ٠
المسيحية ، ط٠ ثانية ، القاهرة ١٩٦٦ ٠

العامرى ، أبو الحسن محمد بن يوسف : كتاب الاعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ، القاهرة (دار الكاتب العربى ــ تراثنا) ١٣٨٧/١٩٦٧ ٠

السعادة والاسعاد ، صورة للمخطوط ، نشرة مجتبى مينوى ــ فيزبادن ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ ٠

عبد الباقى ، محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، كتاب الشعب ــ القاهرة ١٣٧٨هـ ٠

عيسى ، كمال محمد : خصائص مدرسة النبوة ، دار الشروق ــ جدة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ٠

غراب ، أحمد عبد الحميد : الاسلام والعلم القاهرة ١٤٠١/١٩٨١ ٠

الاقناع فى القرآن (بالانجليزية) لندن ١٩٨١ ٠

الاسلام فى الحياة اليومية (بالانجليزية) تحت الطبع ٠

الغزالى ، أبو حامد : احياء علوم الدين ط٠ ثانية القاهرة (دار الفكر) ١٤٠٠/١٩٨٠

الغزالى ، محمد : خلق المسلم دمشق دار القلم ١٤٠٢/١٩٨٢

القرضاوى ، يوسف : الحلال والحرام فى الاسلام ط ١٣ بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠ ٠

الخصائص العامة للاسلام ، القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧

فقه الزكاة : جزآن ، ط ثالثة ، بيروت ١٣٨٩/١٩٦٩ ·

الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف ، كتاب الأمة ، الدوحة ، ١٤٠٢هـ ·

قطب ، سيد : معالم فى الطريق ط· سادسة دار الشروق ، بيروت ، ١٣٩٩/١٩٧٩ ·

فى ظلال القرآن ط· سادسة ثلاثين جزءا ، القاهرة ـ بلا تاريخ ·

قطب ، محمد : شبهات حول الاسلام ط ١٤ بيروت دار الشروق ، ١٤٠١/١٩٨١ ·

قبسات من الرسول ، ط ٨ بيروت دار الشروق ١٤٠٣/١٩٨٣

منهج التربية الاسلامية ، جزآن ج ١ ط ٧ ، ج ٢ ط ٤ ، بيروت دار الشروق ١٤٠٣/١٩٨٣ ·

كاريل ، الكسيس : الانسان ذلك المجهول · ترجمة شفيق أسعد فريد بيروت (مكتبة المعارف) ·

كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧ ·

الماوردى ، ابو الحسن : الأحكام السلطانية ط· ثانية ، القاهرة ، ١٣٨٦/١٩٦٦ ، ط بيروت ١٣٩٨/١٩٧٨ ·

مسلم ، ابن الحجاج النيسابورى : كتاب الصحيح*

المسعودى : التنبيه والاشراف ، القاهرة ١٩٣٨ ·

المودودى : أبو الأعلى : مبادىء الاسلام ، الدار السعودية ـ جدة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ·

المبادىء الأساسية لفهم القرآن ، ط· ثالثة ، القاهرة ، ١٣٩١/١٩٧١ ·

المودودى وحسن البنا وسيد قطب : الجهاد فى سـبيل الله ، بيروت ، ١٣٨٩/١٩٦٩ .

الندوى ، أبو الحسن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط. ثانية ، الكويت ١٣٩٠/١٩٧٠ .

النووى ، أبو زكريا يحيى : رياض الصالحين ، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢ .

ENGLISH REFERENCES

Abu al-Ala Mawdudi :

Fundamentals of Islam. 2nd ed. Lahore 1976.

The Meaning of the Qur'an. Lahore 1970.

The Ethical View point of Islam. Lahore 1966.

Islamic Way of Life, Kuwait 1393/1973.

Ahmad Abd al-Hamid Ghorab :

The Qur'anic Reasoning. London 1981.

Islam In Daily Life London 1984.

Huxley, A. :

The Perennial Philosophy, 2nd ed. London 1959.

Maryam Jamila :

Western Civilization Condemned By Itself. 2 Vols. Lahore, 1970.

Islam in Theory and Practice, Lahore, 1967.

Islam and Orientalism, Lahore, 1971.

Maurice Bucaille :

The Bible, The Qur'an and Science, USA 1978.

Muhammad Abu al-Qasim :

The Ethics of al-Ghazali, Malaysia, 1975.

The Ethics of al-Ghazali, 1975.

Muhammad Asad :

Islam at the Cross Roads, Lahore, 1963.

Principles of State And Government in Islam, **California 1961.**

Muhammad Qutb :

Islam the Misunderstood Religion, Kuwait, 1967.

Sayyid Qutb :

In the Shade of the Qur'an, Vol. 30, London 1979.

Southern, R. W. :

Western Views of Islam in the Middle Ages, Harvard University Press 1962.

Toynbee, A. :

A Study of History, London, 1965.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٥٣٥٢

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٧١٧ ـ ٤

هذا الكتاب :

إن المجتمعات الإسلامية تقيم شخصية الأنسان عادة حسب مقاييس مادية : كدخله ، أو طبقته الاجتماعية ، أو جنسه ، أو لون جلده . بينما تقيم شخصية الإنسان فى القرآن حسب مقاييس ربانية تميز بين الهدى والضلال ، وتحدد خصائص المهتدي والضال .

وهذا الكتاب دراسة تربوية هادفة لشخصية المسلم والكافر والمنافق على ضوء القرآن الكريم ، ومحاولة جادة لبناء الشخصية المسلمة حتى تسهم فى عملية التغيير الجذرى لأوضاع المسلمين الحاضرة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب